ناعوم تشومسكي

مكتبة الشروق الدولية

السيطرة على الإعلام

تعريب: أميمة عبد اللطيف



السيطرة على الإعلام

الإنجازات الهائلة للبروباجندا

الطبعـــة الأولى
١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م

مكتبة الشروق الدولية

ش الفتح ـ أبراج عثمان ـ أمام المريلاند ـ روكسى ـ القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٣٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨
Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

ناعـوم تشـومسكى

السـيطرة على الإعـلام

الإنجـازات الهـائلة للپـروپاجنـدا

تعريب: أميمة عبد اللطيف

مكتبة الشروق الدوليه

عـن المؤلــف

البروفيسور ناعوم تشومسكى ناشط سياسى وكاتب معروف عالميا، وهو يشغل أيضًا أستاذ علم اللغويات بمعهد ماساتشوستس للتكنولوچيا، حيث يقوم بالتدريس منذ عام ١٩٥٥، وقد حاضر تشومسكى عن اللغويات والفلسفة والسياسة. وأحدث كتبه هو كتاب ٩-١١(*) والذى حقق أعلى نسبة مبيعات له على مستوى العالم، وتشمل مؤلفاته الأخرى: **القوى والآمال، ماذا يريد العم سام(**)، النظم العالمية القديمة والحديثة، الديموقراطية الرادعة، صناعة الإجماع (مع إى. إس. هيرمان)، ٥٠١ عام والغزو مستمر، الأرباح فوق الناس، الإنسانية العسكرية الجديدة، آفاق جديدة لدراسة اللغة والعقل، البلدان المارقة وجيل جديد يرسم الخط**. إن جهود تشومسكى من أجل تدعيم الديموقراطية يُحتفى بها من قبل حركات العدالة الاجتماعية والسلام العالمية.

(*) نشرته مكتبة الشروق الدولية.

(**) نشرته دار الشروق.

١

الإنجازات الهائلة للبروباجندا

يدفعنا الدور الذى تقوم به وسائل الإعلام فى شئون السياسة المعاصرة إلى طرح تساؤلات حول ماهية العالم والمجتمع الذى نرغب فى العيش به، وعلى وجه الخصوص فى أى صورة من الديموقراطية نريد لهذا المجتمع أن يكون ديموقراطيًا. لنبدأ أولا بطرح مفهومين أو تعريفين مختلفين للديموقراطية. **المفهوم الأول يعتبر أن المجتمع الديموقراطى هو المجتمع الذى يملك فيه العامة (الجمهور) الوسائل اللازمة للمشاركة الفعالة فى إدارة شئونهم، وأن تكون وسائل الإعلام منفتحة وحرة.** إذا بحثت عن المعنى اللغوى لكلمة الديموقراطية فى القاموس، فستجد ذات التعريف. أما المفهوم الآخر للديموقراطية، **فهو أن يمنع العامة من إدارة شئونهم وكذا من إدارة وسائل الإعلام التى يجب أن تظل تحت السيطرة المتشددة**. وقد يبدو هذا مفهومًا مستهجنًا أو شاذًا للديموقراطية، ولكن من المهم بمكان فهم أن ذلك هو المفهوم الحاكم، وفى واقع الأمر هو ليس فقط المفهوم المعمول به فعليًا لفترات طويلة ولكنه أيضا له أساس من الناحية النظرية. ولكنى سأقتصر بالحديث عن الفترة الحديثة، وسأوضح كيف تطورت فكرة الديموقراطية وكيف ولماذا نقدم مشكلة وسائل الإعلام والتضليل المعلوماتى ضمن هذا السياق؟! لنبدأ أولا بالإشارة إلى أول عملية دعائية حكومية فى العصر الحديث، حيث كانت أثناء إدارة الرئيس وودرو ويلسون الذى انتخب رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩١٦، وفق برنامج انتخابى بعنوان "سلام بدون نصر"، وكان ذلك فى منتصف الحرب العالمية الأولى.

فى تلك الأثناء كان المواطنون مسالمين لأقصى الدرجات، ولم يروا سببًا للانخراط

والتورط فى حرب أوروبية بالأساس، بينما كان على إدارة ويلسون التزامات تجاه الحرب، ومن ثم كان عليها فعل شيء ما حيال هذا الأمر. فقامت الإدارة بإنشاء لجنة للدعاية الحكومية أطلق عليها (لجنة كريل) وقد نجحت هذه اللجنة خلال ستة أشهر فى تحويل المواطنين المسالمين إلى مواطنين تتملكهم الهستيريا والتعطش للحرب، والرغبة فى تدمير كل ماهو ألمانى، وخوض حرب، وإنقاذ العالم!.

كان هذا الأمر بمثابة إنجاز هائل، وقد قاد بدوره لإنجاز آخر؛ ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها، تم توظيف ذات التكتيك لإثارة هيستيريا ضد الرعب الشيوعى - كما كان يطلق عليه - وقد نجحت إلى حد كبير فى تدمير الاتحادات العمالية والقضاء على بعض المشكلات الخطيرة، مثل حرية الصحافة وحرية الفكر السياسى، وكان هناك تأييد قوى من قبل وسائل الإعلام، وكذلك من قبل مؤسسة رجال الأعمال التى نظمت بل وشجعت جلّ هذا العمل، وكان بصفة عامة نجاحًا عظيمًا.

وكان المفكرون التقدميون بين هؤلاء الذين شاركوا بحماس فى حرب ويلسون، ولاسيما أولئك المنتمين لمجموعة چون ديوى - الذين كانوا يتباهون كما يفهم من كتاباتهم آنذاك - بكونهم هم الذين سلطوا الضوء على أولئك الأفراد فى المجتمع الذين يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء، وتحديدا هم أنفسهم؛ لكونهم قادرين على دفع المواطنين المترددين دفعا إلى الحرب، وذلك بإخافتهم وإثارة مشاعر قومية متطرفة، والوسائل التى استخدمت كانت غير محدودة، فعلى سبيل المثال كان هناك قدر كبير جيد من الفبركة والتزييف للمذابح التى ارتكبها الألمان، مثل موضوع الأطفال البلچيكيين ذوى الأذرع الممزقة، وكل تلك الفظاعات التى مازلنا نقرؤها فى كتب التاريخ. معظم هذه القصص هى من اختراع وزارة الدعاية البريطانية، والتى كانت مهمتها آنذاك - كما وصفوها فى تقاريرهم السرية «توجيه فكر معظم العالم»، ولكن الأمر الأكثر أهمية هو رغبتهم فى السيطرة على فكر الأفراد الأكثر ذكاءً فى الولايات المتحدة، والذين سيقومون بدورهم بنشر الدعاية التى خططوا لها، وتحويل البلد المسالم إلى بلد تحكمه هيستيريا الحرب، وقد حدث ونجحوا بالفعل، وكان هناك درس ما فى ذلك المثال ألا وهو أن الدعاية التى تتم بإشراف الدولة حينما تدعمها الطبقات المتعلمة وحين لا يسمح بأى انحراف عن الهدف، بإمكانها أن تحدث أثرا كبيرا. ذلك كان درسًا تعلمه هيتلر وكثيرون غيره، ويتم اتباعه حتى اليوم.

٢

ديموقراطية المشاهد

وقد انبهر بهذه النجاحات جماعات أخرى مثل المنظرين الديموقراطيين الليبراليين، وشخصيات إعلامية مرموقة مثل والتر ليپمان عميد الصحفيين الامريكيين آنذاك، وأحد أهم محللى السياسة الخارجية والمحلية وكذا أحد أهم المنظرين الليبراليين الديموقراطيين. وتحمل العديد من مقالاته عناوين على شاكلة " نظرية تقدمية للفكر الليبرالى الديموقراطى " كما وأن ليپمان كان منخرطًا فى لجان الدعاية واعترف بإنجازاتها. **وذكر بأن ما أسماه بالثورة فى فن الديموقراطية يمكن تطويعه لخدمة ما وصفه بتصنيع الإجماع، بمعنى جعل الرأى العام يوافق على أمور لا يرغبها بالأساس عن طريق استخدام وسائل دعائية.** كما وأن ليپمان رأى بأن هذه فكرة جيدة بل وضرورية. وكانت كذلك لأن ـ من وجهة نظره ـ المصالح العامة كفيلة تماما بخداع الرأى العام، ويمكن فهمها وإدارتها فقط بواسطة " طبقة متخصصة " من " الرجال المسئولين " الذين يتمتعون بدرجة من الذكاء تتيح لهم فهم وإدراك الأمور. هذه النظرية تؤكد أن نخبة صغيرة ـ مجتمع المفكرين الذى أشار إليه أصحاب ديوى من قبل ـ فقط بإمكانها فهم وإدراك ماهية المصالح العامة، ومن ثم تقرير الأمور التى من شأنها أن تعنينا جميعا، وأن يروا بأن هذه الأمور من شأنها أن تضلل الرأى العام. **وجهة النظر تلك ليست بجديدة، فهى تعود لمئات السنين، وهى كذلك وجهة نظر لينينية بحتة. وفى حقيقة الأمر هى مطابقة لمبدأ لينين القائل بأن طلائع المفكرين الثوريين لابد وأن تستولى على السلطة عن طريق توظيف ثورات شعبية كإحدى الوسائل التى من شأنها أن تدفع بهم إلى سدة الحكم، ثم دفع الجماهير الغبية الدهماء باتجاه مستقبل غير قادرين أو مؤهلين**

لفهمه، أووضع تصور له؛ لشدة غبائهم وعدم أهليتهم لفعل ذلك. ويبدو هناك تقارب ما بين النظرية الماركسية اللينينية وبين الديموقراطية الليبرالية فيما يتعلق بالافتراضات الأيديولوچية التى تتبناها كلتا النظريتين. لذا برأيى أن هذا هو أحد الأسباب التى دفعت بالناس للتحول بسهولة من موقف لآخر بدون الشعور بأن تغييرا ما قد حدث. فهو أمر يتعلق بتقييم أين توجد القوة. ربما تقع ثورة شعبية قد تدفع بنا لسدة الحكم أو ربما لن تقع، وإذا صح الافتراض الأخير فسنعمل مع أولئك الذين لديهم القوة الحقيقية، بمعنى آخر مجتمع رجال الأعمال ومن شأننا أن نفعل ذات الشيء، أى أن نقود الجماهير الغبية بإتجاه عالم هم غير قادرين على فهمه لشدة غبائهم وعدم أهليتهم. وقد دعم ليبمان هذا الاتجاه بتقديم نظرية مفصلة عن الديموقراطية التقدمية، حيث يفترض بأنه فى مناخ ديموقراطى سليم، يصنف المواطنين إلى طبقات. فهناك أولا طبقة من المواطنين لابد وأن تقوم بدور فعال فى إدارة الشئون العامة، هذه هى الطبقة المتخصصة وهم الذين يحللون وينفذون ويصنعون القرارات ويديرون الأمور فى النظم السياسية والاقتصادية والايديولوچية، وهى نسبة ضئيلة من السكان، وبطبيعة الحال فإن الشخص الذى من شأنه أن يضع تلك الأفكار لابد وأن يكون عضوا فى تلك المجموعة الصغيرة وهم يتناقشون عما يمكن فعله مع "تلك البقية الأخرى" "أولئك الآخرين". وهؤلاء الآخرون هم من ليسوا فى زمرة المجموعة الصغيرة، وهم الغالبية العظمى من السكان والذين يصفهم ليبمان بأنهم "القطيع الحائر أو الضال" ويقول بأننا يجب أن نحمى أنفسنا من وقع أقدام وزئير هذا القطيع. **إذن هناك "وظيفتان" فى النظم الديموقراطية: الوظيفة الأولى منوط بها الطبقة المتخصصة، الرجال المسئولون يقومون بالتفكير وفهم التخطيط للمصالح العامة، ثم هناك أيضا القطيع الضال! بيد أنه وفق ذلك التحليل، فإن هذا القطيع أيضًا يتمتع بوظيفة ما فى النظام الديموقراطى، تلك الوظيفة ـ حسب تصور ليبمان ـ تتمثل فى كونهم مشاهدين وليسوا مشاركين فى الفعل. هناك وظيفة أخرى بالإضافة لتلك المشاهدة من قبل القطيع؛ نظرًا لأنه نظام ديموقراطى فى التحليل النهائى، فمن وقت لآخر يسمح لهذا القطيع بتأييد أحد أفراد الطبقة المتخصصة، بمعنى آخر يسمح لهم بالقول "نحن نريدك قائدًا لنا" ذلك لأنها ديموقراطية وليست نظامًا شموليًا، وهذا مايطلق**

عليه «الانتخابات»، ولكن بعد أن يلقوا بثقلهم خلف عضو أو آخر، من الطبقة المتخصصة، ومن المفترض أن يعودوا أدراجهم على الفور ويصبحوا مشاهدين لا مشاركين للأفعال . هذا ما يجب أن يحدث فى نظام ديموقراطى سليم!.

ويبدو أن هناك منطقًا ما يحكم الأمور، بل قد يكون هناك مبدأ أخلاقى قوى فى النظرية التى ترى أن عامة الجمهور على درجة من الغباء لا تمكنهم من فهم الأشياء، وإذا ما حاولوا المشاركة فى إدارة أمورهم فهم يتسببون فى خلق مشاكل، ولذا قد يبدو الأمر لا أخلاقيا إذا ما سمحنا لهم بفعل ذلك - فحسب منطقهم - لابد وأن نروض هذا القطيع الحائر وألا نسمح له بالغضب وتحطيم كل شيء، وهو يكاد يكون ذات المنطق الذى يقول بأنه ليس من البديهى ترك الطفل ذى الثلاثة أعوام يعبر الشارع بمفرده، فأنت لا يجب أن تعطيه هذا النوع من الحرية؛ لأن الطفل ذا الثلاثة أعوام لن يعرف كيف يتعامل مع تلك الحرية، وبذات المنطق يمكن القول بأنه لا يجب السماح للقطيع الحائر بأن يكونوا مشاركين فى الفعل، فهم سيتسببون فى إثارة المشاكل، وبالتالى نحن بحاجة لترويض هذا القطيع وهذا الترويض سيكون من خلال تلك الثورة الجديدة فى فن الديموقراطية أو تصنيع الإجماع والقبول. يجب إذن تقسيم وسائل الإعلام والمدرسة ووسائل الثقافة الشعبية، حيث من المفترض أن تمد الطبقة السياسية وصانعى القرارات بإحساس ما بالواقع، كما يجب أيضا تلقينهم الاعتقادات الصحيحة، وعلينا أن نتذكر أن هناك افتراضًا غير معلن هنا، هذا الافتراض - لابد للرجال المسئولين أن يخفوا هذا الأمر حتى عن أنفسهم - يتعلق بالسؤال الأساسى ألا وهو كيف يصل هؤلاء إلى المواقع التى تجعلهم يمتلكون السلطة لصنع القرارات؟ الطريق الذى يسلكونه بالطبع يكون من خلال خدمة أولئك الأفراد الذين يملكون القوة الحقيقية، وهم أولئك الذين يملكون المجتمع، وهى بطبيعة الحال جماعة صغيرة، فإذا ما عرضت الطبقة المتخصصة خدماتها لصالح أولئك الذين يملكون القوة الحقيقية، يكونون بالتالى جزءًا من المجموعة التنفيذية، ومن المهم أن يتم هذا الأمر بهدوء؛ مما يعنى أنه لابد وأن يلقنوا أنفسهم المعتقدات التى من شأنها أن تخدم مصالح القوة الخاصة، وإلى أن يجيدوا تلك المهارة لن يكونوا جزءا من الطبقة المتخصصة. وبالتالى نجد لدينا نوعًا من النظم التعليمية موجه للرجال المسئولين أو الطبقة المتخصصة الذين يجب تلقينهم قيم

ومصالح الطبقة الخاصة والطبقة الكوربراتية (مؤسسات الأعمال) الحاكمة التى تمثلها. فإذا ما تمكنوا من تحقيق ذلك، يمكنهم إذن أن يكونوا جزءًا من الطبقة المتخصصة. أما بقية القطيع الحائر فيجب العمل على تشتيتهم وتحويل انتباههم لأمور أخرى وجعلهم خارج نطاق دائرة المشاكل، والتأكد من أنهم سيحتفظون بمكانهم فى مقاعد المشاهدين للفعل، ومن وقت لآخر يلقون بثقلهم خلف أحد القادة الحقيقيين والذين يمكن المفاضلة فيما بينهم.

وقد تم تطوير وجهة النظر تلك فى العديد من الكتابات، وهى فى حقيقة الأمر وجهة نظر تقليدية، فعلى سبيل المثال يرى رينهولد نايبهور - عالم اللاهوت ومحلل السياسة الخارجية والذى يوصف بكونه لاهوتى المؤسسة الحاكمة وهو عميد المفكرين من عهد جورج كينان إلى كنيدى - بأن المنطق هو مهارة ضيقة النطاق يتمتع بها عدد قليل من الناس؛ ذلك أن غالبية الناس منساقون وراء عواطفهم، وهؤلاء - منا من يملكون المنطق لابد وأن يصنعوا أوهامًا ضرورية وتبسيطات عاطفية لإبقاء الأغبياء السذج على ماهم فيه. وقد أصبحت تلك النظرية جزءًا أساسيا من العلوم السياسية المعاصرة، ففى العشرينيات وأوائل الثلاثينيات أوضح هارولد لازويل مؤسس علم الاتصالات وأحد منظرى العلوم السياسية المرموقين، أنه لا يجب أن نستسلم للدوجمات الديموقراطية التى تقول بأن الرجال هم القادرون على الحكم على مصالحهم، فهم ليسوا كذلك! نحن أكثر الناس قدرة على تحديد والحكم على المصالح العامة، وبالتالى انطلاقا من تلك القاعدة الأخلاقية البسيطة لابد وأن نتأكد من أنه لن تتاح لهم الفرصة للتصرف بناءً على سوء أحكامهم. فيما يسمى اليوم بالدولة الشمولية أو الدولة العسكرية هو أمر ليس بالمستحيل، فقط عليك أن تمسك بهراوات فوق رءوسهم، وإذا خرجوا عن الخط ما عليك إلا أن تحطم تلك الهراوات فوق رؤوسهم، ولكن فى مجتمع أكثر ديموقراطية وحرية، فقدت هذه الوسيلة، فعليك إذن اللجوء إلى أساليب الدعاية والمنطق، **فالدعاية فى النظام الديموقراطى هى بمثابة الهراوات فى الدولة الشمولية، وهذا أمر يتسم بالحكمة، ومرة أخرى: لا تنسى أن المصالح العامة تضلل القطيع الحائر الذى ليس بإمكانه فهم تلك المصالح.**

٣

العلاقات العامة

تعد الولايات المتحدة رائدة صناعة العلاقات العامة؛ ذلك أنها التزمت مبدأ السيطرة على العقل العام - على حد تعبير قادتها - الذين تعلموا الكثير من النجاحات التى حققتها لجنة كريل وكذا النجاح فى خلق «الذعر الأحمر»(*) والعواقب التى خلفها. وقد توسعت صناعة العلاقات العامة بشكل كبير خلال ذلك الوقت، حتى إنها نجحت لبعض الوقت فى إخضاع الرأى العام لحكم رجال الأعمال خلال العشرينيات، وقد بلغ الأمر حدا من التطرف إلى درجة دفعت بالكونجرس لتشكيل لجنة للتحقيق فى بداية الثلاثينيات، ومن هنا تأتى معظم معلوماتنا حول هذه القضية. فالعلاقات العامة تعد بمثابة صناعة ضخمة، وهم ينفقون ما يقارب البليون دولار سنويا، ودائما هم ملتزمون بمبدأ السيطرة على العقل العام. ففى الثلاثينيات بدأت تظهر مشاكل كبيرة كما حدث أثناء الحرب العالمية الأولى، فقد كانت هناك موجة كساد وعملية تنظيم للعمالة، وفى حقيقة الأمر فقد فازت الحركة العمالية بأول نصر تشريعى لها فى العام ١٩٣٥، وهو حق التنظيم المعروف باسم «قانون واجنر». وقد أثار هذا الأمر مشكلتين حادتين: الأولى هى أن الديموقراطية لا تؤدى وظيفتها كما يجب، فالقطيع الضال يحقق فعلا نصرا تشريعيا مع أنه ليس من المفترض أن يحدث ذلك. أما المشكلة الأخرى فتكمن فى أنه أصبح بإمكان الناس التنظيم فى حين أنه يجب أن يظل الناس منقسمين ومنفصلين ومفتتين، وليس من المفترض أن يكونوا منظمين؛ لأنه حينئذ ربما يتحولون إلى شىء آخر غير كونهم مشاهدين للحدث ولا مشاركين فى صنعه. وربما يكون بإمكانهم أن يكونوا مشاركين إذا نجح عدد قليل من الناس ذوى الموارد المحدودة فى توحيد صفوفهم للدخول فى الحلبة السياسية، وهو أمر يثير الفزع. وقد كان رد فعل جماعة رجال

(*) مصطلح يُطلق على حملة التخويف من الشيوعية.

الأعمال كبيراً، للتأكد من أن ذلك التشريع سيكون الأخير من نوعه للحركة العمالية، وأنه سيكون بداية النهاية لهذا الانحراف الديموقراطى للتنظيم الشعبوى. وقد كان. فبالفعل كان ذلك آخر نصر تشريعى للحركة العمالية، ورغم تزايد عدد أعضاء الاتحادات العمالية خلال الحرب العالمية الثانية - ثم بدأ العدد فى التناقص بعد الحرب - فإنه منذ ذلك الوقت بدأت القدرة على العمل من خلال الاتحادات العمالية فى التناقص بشكل ثابت. ولم يكن الأمر من قبيل المصادفة، ذلك أننا نتحدث عن جماعة رجال الأعمال الذين يبذلون الأموال والاهتمام والفكر، فى سبيل معرفة الكيفية التى يستطيعون من خلالها التعاطى مع هذه المشكلات من خلال صناعة العلاقات العامة ومنظمات أخرى مثل المنظمة القومية للصناع والدائرة المستديرة لرجال الأعمال، فقد بدأوا العمل فى الحال لإيجاد وسيلة ما لمواجهة هذا الانحراف الديموقراطى. وكانت المحاكمة الأولى فى العام التالى ١٩٣٧ حينما وقع إضراب عمال الحديد فى غرب بنسلفانيا بجونز تاون، وحاول رجال الأعمال تطبيق طريقة جديدة لتدمير الحركة العمالية، وقد نجحت إلى حد كبير ليس من خلال تكسير الأرجل، حيث لم تعد تلك وسيلة مجدية، وإنما من خلال وسائل دعاية احتيالية و فعالة. وكانت الفكرة تتلخص فى كيفية إيجاد وسيلة ما لتحويل عامة الجمهور ضد القائمين بالإضراب، وتقديم المضربين على أنهم مخربون ضد الجمهور والمصالح العامة، والمصالح العامة هى بطبيعة الحال مصالحنا "نحن" رجال الأعمال، . . . . والعمال وربات البيوت، هذا كل مانعنيه بـ "نحن" نريد أن نكون معا ويكون بيننا تناغم وأن نعمل معا وتجمعنا هويتنا الأمريكية، ثم هناك أولئك المضربون الأشرار، وهم مخربون ويسببون المشاكل، كما وأنهم يهددون هذا التناغم فقد نقضوا هويتنا الأمريكية، يجب علينا أن نوقفهم لنعيش معا. فالمسئولون التنفيذيون فى الشركة وعمال النظافة لديهم ذات المصالح، ونحن بإمكاننا العمل معا، وأن نعمل للحفاظ على هويتنا الأمريكية فى تناغم نحب بعضنا البعض. هكذا كانت الرسالة، وقد بُذلت جهود خارقة لتقديمها، فهذا على كل حال هو مجتمع رجال الأعمال الذى يسيطر على وسائل الإعلام، ولديه موارد هائلة، وقد نجحت بفعالية شديدة ثم أطلق عليها لاحقا صيغة "وادى موهوك" وتم تطبيقها مراراً وتكراراً للقضاء على أعمال الإضراب، وكان يطلق عليها الطرق العلمية للقضاء على الإضراب، وكانت طرق ذات فعالية فى تعبئة الرأى العام لصالح مبادئ تافهة وخاوية من المعنى مثل الهوية الأمريكية. من بإمكانه أن يقف ضد هذا؟ أو ضد التناغم؟ من بإمكانه الوقوف ضد ذلك؟ أو كما

حدث فى حرب الخليج الثانية "أيدوا قواتنا" من بإمكانه أن يكون ضد ذلك؟ فى حقيقة الأمر ماذا يعنى؛ إذا سألك شخص ما عما إذا كنت تؤيد الناس فى ولاية أيوا؟ هل تجيب بنعم أؤيدهم أو لا أؤيدهم؟ هو حتى ليس بسؤال؛ لأنه لا يعنى شيئًا وهذا بالأساس هدف شعارات حملات العلاقات العامة مثل "أيدوا قواتنا" وهو أنه لا يجب أن يعنى أى شىء؛ لأنه بذات معنى ما إذا كنت تؤيد الناس فى أيوا. بطبيعة الحال كان هناك موضوع ما وهو هل تؤيد سياستنا؟ ولكنك لم ترد أن يفكر الناس بهذا الأمر بالذات، و هذا هو الهدف الأساسى من الدعاية الجيدة، تريد عمل شعار ما لن يكون بإمكان أحد الوقوف ضده، وسيصطف خلفه الجميع. فلا أحد يعرف ماذا يعنى؛ لأنه فى واقع الأمر لا يعنى شيئًا على الإطلاق، وقيمته الأساسية تكمن فى كونه يشتت الانتباه عن سؤال ذى معنى ألا وهو هل تؤيد سياستنا؟ وهو السؤال الذى ليس مسموحا لك بالحديث عنه؛ ولذا تجد أناسا يتجادلون بشأن تأييد القوات، بالطبع أنا لا أعارض تأييد القوات إذا تمكنت من جعل النقاشات تبلغ هذه المرحلة من الجدل. . . فقد فزت إذن، وهذا الأمر أشبه بمبادئ مثل الهوية الأمريكية أو التناغم، أوأننا معا، فهى شعارات جوفاء ويكون لسان حال رجال الأعمال فلننضم إليهم إذن، ولنتأكد من أن هؤلاء الأشخاص السيئين يهدفون لتخريب هذا التناغم بحديثهم عن صراع وحقوق الطبقات. **هذا الأسلوب فعال للغاية، وهو مستمر حتى اللحظة ويتم التحضير له بعناية، فالعاملون فى مجال العلاقات العامة ليسوا هناك للترفيه. هم يقومون بعمل جاد، ذلك أنهم يحاولون تلقين القيم الصحيحة ـ وفق رؤيتهم هم. بل فى واقع الأمر لديهم تصور عما يجب أن تكون عليه الديموقراطية، حيث يجب أن تكون نظامًا يسمح فيه للطبقة المتخصصة بالتدرب للعمل فى خدمة السادة ـ أى أولئك الذين يملكون المجتمع ـ أما بقية المجتمع فيجب حرمانه من أى صورة من صور التنظيم؛ لأن التنظيم يثير المشاكل، حيث يجب أن يجلسوا بمفردهم أمام شاشات التليفزيون وأن يلقنوا رسالة مفادها أن القيمة الأساسية فى الحياة هى أن يتوافر لديك أكبر كمية من السلع، أو أن تعيش مثل الطبقة الغنية المتوسطة التى تشاهدها، وأن تتبنى قيمًا لطيفة مثل التناغم والهوية الأمريكية، هذا كل ما هنا لك فى الحياة. قد تسول لك نفسك بأنه ربما هناك أشياء أخرى فى الحياة، ولكنك تقول حينئذ إنه ربما أصابك الجنون للتفكير بذلك؛ لأن هذا هو كل شىء يحدث هناك. وبما أنه غير مسموح بالتنظيم، وهو أمر غاية فى الأهمية؛ إذ ليس باستطاعتك معرفة ما إذا كنت بالفعل مجنونا أم أنك تفترض ذلك؛ لأن ذلك الافتراض يبدو طبيعيا. إذن هذا هو**

الأنموذج، وتبذل جهود هائلة فى سبيل تحقيق هذا الأنموذج. من الواضح أن ثمة تصوراً ما وراء هذا، وتصور الديموقراطية هو الذى أشرت إليه، فالقطيع الضال يعد مشكلة وعلينا منعه من الزئير ووقع الأقدام، عليهم أن ينشغلوا بمشاهدة أفلام العنف والجنس، أو المسلسلات القصيرة، أو مباريات الكرة . . . . وبين الفينة والأخرى تستدعيهم ليرددوا شعارات لا معنى لها مثل "ساندوا قواتنا"، وعليك أن تجعلهم خائفين طوال الوقت؛ لأنه إذا لم تتم إخافتهم من كل أنواع الشياطين التى ستقضى عليهم من الداخل والخارج، فربما يبدءون بالتفكير، وهو أمر جد خطير؛ لأنهم ليسوا مؤهلين للتفكير؛ ولذا من المهم تشتيتهم وتهميشهم. هذا هو تصور الديموقراطية. وفى حقيقة الأمر إذا عدنا لمجتمع رجال الأعمال فإن النصر التشريعى الأخير للحركة العمالية كان فى عام ١٩٣٥ والمعروف باسم "قانون واجنر". بعد وقوع الحرب تدهورت حالة الاتحادات العمالية وتدهورت معها ثقافة غنية للطبقة العمالية التى ارتبطت بتلك الاتحادات. كل ذلك تحطم، وتحولنا إلى مجتمع يديره رجال الأعمال بشكل مذهل، وهو مجتمع صناعى تديره دولة رأسمالية، ولا يتمتع حتى بالعقد الاجتماعى الطبيعى الذى تجده فى مجتمعات مماثلة. فبالإضافة لمجتمع جنوب أفريقيا، أعتقد أنه المجتمع الصناعى الوحيد الذى لا يتمتع بنظام تأمين صحى، ليس هناك أى التزام حتى لمعايير دنيا من العيش للأفراد الذين ليس بإمكانهم مجاراة تلك القواعد أو أن يحوزوا أشياء بأنفسهم وبشكل فردى(*). فالنقابات غير موجودة فعليا، كما أن الأشكال الأخرى من البناء الشعبوى أيضا غير متاحة بالمرة، ولا يوجد أحزاب أو منظمات سياسية، والطريق طويل لتحقيق الأنموذج على الأقل من الناحية البنائية، ووسائل الإعلام تحتكرها الشركات، فهم لديهم رؤية واحدة، وكلا الطرفين لا يسعه إلا أن يتبع جماعة رجال الأعمال، ومعظم السكان لا يهتم حتى بالتصويت؛ لأنه يبدو بلا معنى فهم مهمشون ويتم تشتيتهم. على الأقل هذا هو الهدف الآن، وأحد الأشخاص المرموقين فى صناعة العلاقات العامة - وهو إدوارد بيرنايز - كان بالفعل عضوا فى لجنة كريل، لقد كان جزءاً منها وتعلم الدرس ثم قام بتطوير ما أسماه بـ" إدارة الإجماع" والتى يصفها بأنها جوهر الديموقراطية. والناس الذين لديهم القدرة على إدارة الإجماع هم الذين لديهم الموارد والقوة لفعل ذلك، وهم مجتمع رجال الأعمال، وهؤلاء من يجب أن تعمل لديهم.

(*) بطبيعة الحال ذلك كلام نسبى للغاية، خاصة إذا قارنا ذلك بأحوال شعوب الشرق الأوسط البائسة التعيسة - الناشر.

٤

إدارة الــرأى العـام

من المهم بمكان حفز الرأى العام لتأييد مغامرات السياسة الخارجية، وعادة مايكون الناس مسالمين مثلما كانوا أثناء الحرب العالمية الأولى، ذلك أن عامة الجمهور لا يجدون سببا للتورط فى مغامرات خارجية أو عمليات قتل وتعذيب ولذا لابد من تحفيزهم. ولفعل ذلك لابد وأن تثير مخاوفهم، وقد حقق بيرنايز إنجازا فى هذا المجال، فقد كان مسئولا عن إدارة حملة العلاقات العامة لشركة يونايتد فروت فى عام ١٩٥٤ حينما حاولت الولايات المتحدة التدخل للإطاحة بالحكومة الليبرالية الديموقراطية لجواتيمالا، وأقامت بدلا منها مجتمعًا من فرق الموت القاتلة، والتى مازالت قائمة حتى اليوم من خلال التدفق المستمر لأموال المساعدات الأمريكية لمنع أى انحراف ديموقراطى، ومن المهم بمكان محاولة تسويق البرامج المحلية التى يعارضها عامة الجمهور؛ لأنه ليس هناك سبب لجعل الجمهور يدعم برامج محلية ليست فى صالحه، وهذا الأمر أيضًا يتطلب دعاية، وقد رأينا أمثلة على ذلك خلال العشر سنوات الماضية، فبرامج ريجان كانت غير شعبية على الإطلاق، والناخبون الذين صوتوا فى الانتخابات التى حقق فيها ريجان نصراً كبيراً، كان اثنان من كل ثلاثة منهم يعربون عن أملهم ألا تسن سياسته كقوانين! وإذا ما تناولنا برامج بعينها مثل التسلح وخفض النفقات الاجتماعية، كان الجمهور يعارض ـ تقريبا ـ كل هذه البرامج، ولكن يجب أن يظل الناس مهمشين ومشتتين وليس لديهم طريقة للتنظيم ولا بإمكانهم التعبير عن مشاعرهم، أو حتى أن يعلموا أن الآخرين لديهم ذات المشاعر. والناس الذين يفضلون النفقات الاجتماعية عن النفقات العسكرية، الذين قدموا إجابات فى استطلاعات الرأى كما فعل الناس

بشكل كبير، افترضوا أنهم الوحيدون الذين لديهم تلك الأفكار المجنونة، فهم لم يسمعوها من أى مكان آخر. فليس من المفترض أن يفكر أحد هكذا، وبالتالى إذا فكرت هكذا وأجبت فى استطلاعات الرأى، فأنت تفترض إذن أنك ربما تكون غريبًا، وبما أنه لا توجد وسيلة ما للالتقاء مع أناس آخرين يشاركون أو يؤكدون وجهة النظر تلك ويساعدونك على شرحها، سوف تشعر بالاستهجان، وبالتالى تظل على الهامش ولا تهتم بما يحدث، تهتم بشىء آخر مثل مباريات الدورى.

إلى حد ما إذن تحقق هذا الأنموذج، فهناك مؤسسات كان من المستحيل تدميرها مثل الكنائس التى مازالت موجودة، وقسم كبير من النشاط المعارض فى الولايات المتحدة نابع من الكنائس؛ لسبب بسيط هو أنها مازالت موجودة، فحينما تذهب إلى دولة أوروبية لتقديم محاضرة سياسية من المحتمل أن تعقد فى أحد الاتحادات، أما هنا فى الولايات المتحدة فلن يحدث ذلك؛ لأن الاتحادات أو النقابات نادرا ما تتواجد، وإذا تواجدت فهى ليست منظمات سياسية، ولكن الكنائس موجودة ولذا عادة ما تعقد المحاضرات أو الندوات فى الكنائس، **وأنشطة النضال فى أمريكا الوسطى تمت فى الكنائس؛ وذلك لأن الكنائس كانت موجودة**. والقطيع الضال لا يتم ترويضه بشكل سليم؛ ولذا فهذه معركة مستمرة، وفى الثلاثينيات ثاروا مرة أخرى وتم إخمادهم، وفى الستينيات كانت هناك موجة أخرى من المعارضة وأطلقت عليها الطبقة المتخصصة "أزمة الديموقراطية". فالديموقراطية كان ينظر لها على أنها على وشك الدخول فى أزمة فى الستينيات، والأزمة كانت عبارة عن أن أقسامًا كبيرة من السكان أصبحت أكثر تنظيما ونشاطا، وكانت تسعى للمشاركة فى العملية السياسية. وهنا نعود مرة أخرى للحديث عن فهمين للديموقراطية: وفق التفسير القاموسى هذا (تمهيد) للديموقراطية، ووفق التصور السائد هذه (مشكلة أو أزمة) لابد من تخطيها، حيث لابد من دفع الجمهور للتبلد والطاعة والسلبية، وهى الحالة الطبيعية التى يجب أن يكون عليها الجمهور، ولذلك يجب عمل شىء ما للتغلب على هذه الأزمة. و قد بذلت بالفعل جهود لتحقيق ذلك غير أن الأمر لم ينجح. ومازالت أزمة الديموقراطية حية وقائمة، ولكن لحسن الحظ ليست مؤثرة فى تغيير السياسات، بيد أنها مؤثرة فى تغيير الآراء على نقيض مايعتقده الكثيرون. لقد بُذلت جهود كبيرة بعد الستينيات لمحاولة التغلب على

هذا الداء . إحدى صفات هذا الداء أطلق عليها اسم فنى وهو " أعراض ڤيتنام" وهو مصطلح بدأ فى الظهور فى السبعينيات ، وقد عرفه نورمان بودهورتز المفكر الموالى لريجان بأنه المخاوف المرضية ضد استخدام القوة العسكرية ، وقد كانت هناك بالفعل مخاوف مرضية ضد استخدام العنف من قبل أعداد كبيرة من الجمهور . ولم يفهم الناس لماذا نعذب الناس ونقتلهم ونهاجمهم بالقنابل ، فمن الخطير بمكان أن يكون الناس محكومين بهذه المخاوف المرضية ، كما فهمها جوبلز ؛ لأنه آنذاك ستكون هناك حدود على المغامرات على صعيد السياسة الخارجية ، ومن الضرورى - كما أشارت جريدة الواشنطن پوست بشكل لا يخلو من الفخر خلال هستيريا حرب الخليج - تلقين الناس احترام " القيم العسكرية " . **وهذا أمر مهم إذا أردت مجتمعًا قائمًا على العنف ، يوظف القوة العسكرية حول العالم لتحقيق أهداف النخبة المحلية** ، فمن الضرورى أن يكون هناك تقدير ما للقيم العسكرية ، وألا يكون هناك وجود لتلك المخاوف المرضية حول توظيف العنف ، هذا هو عَرَض ڤيتنام ، ومن الضرورة بمكان التغلب عليه .

التمثيل كالحقيقة

ومن الضرورى كذلك أن يتم تزييف التاريخ ، وهى وسيلة أخرى للتغلب على المخاوف المرضية ليبدو الأمر وكأننا حينما نهاجم وندمر الآخرين فنحن نفعل ذلك لحماية والدفاع عن أنفسنا ضد المعتدين والوحوش . وقد كان هناك مجهود هائل منذ حرب ڤيتنام لإعادة بناء تاريخ الحرب . غير أن الكثير من الناس بدأوا يدركون حقيقة الأمر ، بما فى ذلك الكثيرون من الجنود والشباب الذين انخرطوا فى حركات السلام ، وكان هذا أمراً سيئًا حيث لابد من إعادة تنظيم هذه الأفكار السيئة ووضع بعض العقلانية ، أو على وجه التحديد إدراك أن كل مانفعله هو نبيل وصحيح ، فإذا قمنا بمهاجمة جنوب ڤيتنام بالقنابل ؛ فذلك لأننا ندافع عن جنوب ڤيتنام ضد الڤيتناميين الجنوبيين ، بما أنه لا يوجد شخص آخر هناك! وهو ما وصفته نخبة كنيدى بالدفاع ضد " العدوان الداخلى " فى جنوب ڤيتنام ، وهى العبارة التى استخدمها أدلاى ستيڤنسن وآخرون ، وكان من الضرورى صناعة مثل هذه الصورة

الرسمية، وقد حققت نجاحا ملحوظا. وحينما تسيطر على الميديا وتعكس المؤسسة التعليمية والأكاديمية آراء النخبة، يمكن حينئذ أن تمرر رسائلك. أحد الدلائل على ذلك كشف عنه فى دراسة أجرتها جامعة ماساتشوستس حول اتجاهات الجمهور تجاه أزمة الخليج الحالية بعنوان: دراسة حول الاتجاهات والمعتقدات فى مشاهدة التليفزيون. أحد الأسئلة الموجهة فى الدراسة كان كم عدد الضحايا الڤيتناميين الذين تقدر أنهم قتلوا أثناء حرب ڤيتنام؟ وضعت الإجابة العدد عند مائة ألف، بينما كان الرقم الرسمى يقدر بحوالى ٢ مليون شخص، أما الرقم الحقيقى فهو مابين ثلاثة وأربعة ملايين، وقد أثار الأشخاص الذين وضعوا الدراسة سؤالا مناسبا: ما رأيك فى الثقافة السياسية الألمانية؟ إذا ماسألت الناس اليوم حول عدد اليهود الذين ماتوا أثناء المحرقة النازية وقدروها بحوالى .. ٣ ألف شخص؟ ماذا يمكن أن يخبرنا هذا عن الثقافة السياسية الألمانية؟ وقد ترك السؤال بدون إجابة ولكن بالإمكان تتبعها ومعرفتها. ماذا يخبرنا هذا الأمر عن ثقافتنا؟ يخبرنا بعض الشيء عنها، فمن الضرورى تخطى المخاوف المرضية ضد استخدام القوة العسكرية وغيرها من الانحرافات الديموقراطية الأخرى، وفى هذه الحالة بالذات تم تحقيق نجاح ما وهو حقيقى بالنسبة لكل موضوع، فتخير الموضوع الذى تريد: الشرق الأوسط، الإرهاب الدولى، أمريكا الوسطى، أيًا ما كان، **فصورة العالم التى تقدم لعامة الجمهور أبعد ما تكون عن الحقيقة، وحقيقة الأمر عادة مايتم دفنها تحت طبقة وراء طبقة من الأكاذيب، وكان هذا نجاحًا مبهرًا، حيث إنه منع التهديد الذى تمثله الديموقراطية، وتم إنجازه فى إطار من الحرية وهو أمر غاية فى التشويق، فهو ليس مثل الدولة الشمولية حيث يطبق بالقوة، وإنما هذه المنجزات تتم فى إطار من الحرية، وإذا أردنا فهم مجتمعنا علينا أن نفكر بهذه الحقائق، فهى على درجة كبيرة من الأهمية لأولئك الذين يهتمون بماهية وطبيعة المجتمع الذى نعيش فيه.**

* * *

٥

ثقافة الانشقاق

رغم كل، ذلك فإن ثقافة الانشقاق ظلت حية، وقد نمت بشكل كبير منذ الستينيات ففى تلك الفترة تطورت هذه الثقافة بصورة بطيئة، حيث لم تكن هناك أى حركات احتجاجية ضد الحرب فى الهند الصينية، إلى أن بدأت الولايات المتحدة بالهجوم على جنوب ڤيتنام، وحينما تطورت تلك الحركة الاحتجاجية كانت حركة معارضة محدودة معظم عناصرها من الطلبة والشباب، ومع قدوم السبعينيات تغير الأمر بدرجة ملحوظة، حيث ظهر للعلن العديد من الحركات الاحتجاجية، مثل منظمات البيئة والمنظمات النسوية والمنظمات المناهضة للأسلحة النووية وآخرين. فى الثمانينيات حدث توسع كبير ليشمل حركات التضامن، وهو تطور جديد ومهم فى تاريخ المعارضة الأمريكية وربما المعارضة العالمية، وهذه حركات لم تقم بفعل احتجاجى فحسب، وإنما انخرطت بشكل فعلى فى حياة أولئك الذين يعانون فى أنحاء مختلفة من العالم، وقد تعلموا الكثير، وكان لهم تأثير متحضر على الجمهور العادى فى أمريكا؛ وقد أدى ذلك لحدوث اختلاف كبير، فأى من أولئك الذين انخرطوا فى هذا النوع من الأنشطة لسنوات عديدة لابد وأن يكونوا على علم بذلك، وأنا على دراية بأن المحاضرات التى ألقيها فى أكثر أجزاء أمريكا رجعية، فى وسط چورچيا أو كنتاكى الريفية، هى محاضرات لم يكن باستطاعتى أن ألقيها أثناء أكثر الفترات التى كانت فيها حركات السلام فى ذروتها ولجمهور أكثر انخراطا فى حركة السلام، والآن باستطاعتك تقديمها فى أى مكان، وقد يتفق الناس أو لا يتفقون ولكنهم يفهمون ما تتحدث عنه، وهناك

أرضية مشتركة يمكن تتبعها. تلك كلها علامات على التأثير المتحضر رغم كل الدعاية ورغم كل المحاولات للسيطرة على الفكر وتصنيع الاجماع ، ورغم ذلك فالناس يكتسبون القدرة والرغبة للتفكير بالأمور، والتشكك فى السلطة ازداد، وتغيرت الاتجاهات حول الكثير والكثير من الموضوعات. قد يسير الأمر ببطء بعض الشيء أو ربما حتى بشكل بارد ولكنه مهم ومحسوس، أما إذا ماكان هذا التغيير سريعًا بما فيه الكفاية لإحداث تأثير ملحوظ فيما يحدث فى العالم، فتلك قصة أخرى. فهناك مثال مألوف وهو الفجوة الشهيرة بين الجنسين. ففى الستينيات، كانت اتجاهات الرجال والنساء تقريبًا واحدة حول موضوعات مثل " القيم العسكرية " والمخاوف المرضية ضد استخدام القوة العسكرية . لا أحد - سواء من الرجال أو النساء - عانى من تلك المخاوف المرضية فى أوائل الستينيات، وكانت الإجابات واحدة، فالكل أجمع على أن استخدام العنف لقهر الناس كان أمرًا صحيحًا، وعلى مدار السنوات تغير الأمر، فالمخاوف المرضية ازدادت، وفى ذات الوقت ظلت الفجوة تتسع، والآن أصبحت فجوة هائلة . ووفق استطلاعات الرأى تقدر تلك الفجوة بنسبة ٢٥٪ ، ماذا حدث إذن؟ ماحدث هو أنه أصبح هناك شكل من أشكال الحركات الشعبية المنظمة والتى انخرط فيها النساء، وهى الحركات النسائية، وهى منظمات ذات تأثير، فهى تعنى أن تكتشف أنك لست بمفردك، فهناك آخرون لديهم ذات الأفكار مثلك وتستطيع تدعيم تلك الأفكار وتتعلم أكثر عمّا تفكر فيه وتؤمن به، وهذه حركات غير رسمية ليست شبيهة بالمنظمات المبنية على العضوية، وإنما حالة تتضمن التفاعل بين الناس، ولديها تأثير ملحوظ وهذا هو خطر الديموقراطية إذا ما تطورت مثل تلك المنظمات، وإذا لم يستمر الناس ملتصقين بمقاعدهم فى مترو الأنفاق، ربما أخذت تلك الأفكار الغريبة فى التسلل إلى رءوسهم، مثل المخاوف المرضية ضد استخدام القوة العسكرية والتى يجب تخطيها، ولكن لم يتم .

* * *

٦

استعـراض الأعــداء

بدلا من الحديث عن الحرب الأخيرة فلنتحدث عن الحرب القادمة ؛ لأنه أحيانًا من المفـيـد أن تكون مـستعـداً بدلاً من أن تكون فى حـالة ردة الفـعل ، وهنـاك تطور متـميز يحدث حـاليـا فى الولايات المتحدة ، وهى ليست أول دولة فى العـالم تمر بذلك ، فهناك مشاكل محلية اقتصادية واجتماعية متزايدة ، وربما فى حقيقة الأمر ليست مشاكل وإنما كوارث ، ولا يوجد أحد فى السلطة لديه حتى النية لعمل شىء ما حيال هذه المشاكل . **وإذا قرأت البرامج المحلية للإدارات التى توالت على الحكم خلال العقد الماضى ـ ومتضمن فى ذلك المعارضة الديموقراطية ـ لا يوجد أى اقتراحات حقيقية بشأن ما يجب عمله إزاء المشاكل الحادة ، مثل الصحة والتعليم والبطالة(*) والجريمة وارتفاع عدد المجرمين والسجون والتدهور الحاصل فى الضواحى السكنية . كلكم على علم بها وتعلمون كذلك أنها تزداد سوءاً . وفى السنتين اللتين أتى فيهما چورج بوش الحكم ، هناك ثلاثة ملايين طفل هبطوا تحت خط الفقر ، والدين يزداد ، والمستويات التعليمية فى حالة متدهورة ، والأجور عادت إلى المستوى الذى كانت عليه فى أواخر الخمسينيات لمعظم السكان ، ولا أحد بوسعه أن يفعل شيئًا حيال هذا الأمر . وفى مثل هذه الظروف عليك أن تشتت القطيع الضال ؛ لأنهم لو لاحظوا هذا الأمر ربما لا يعجبهم بما أنهم هم الذين يعانون ، وربما أن مشاهدتهم لمباريات الدورى والمسلسلات القصيرة ليست بالأمر**

(*) غنى عن القول أن شعوب الشرق الأوسط البائسة التعيسة تعاني أضعاف ما يعانيه الشعب الأمريكي في مجالات الصحة والتعليم والبطالة والسكن ـ الناشر .

الكافى، عندئذ لابد من إخافتهم من الأعداء، ففى الثلاثينيات أخافهم هتلر من اليهود والغجر، فعليك أن تحطمهم لتدافع عن نفسك، ولدينا طرقنا الخاصة بنا أيضا. كانت هناك طريقة جاهزة دائمًا للاستدعاء: الروس، فأنت باستطاعتك أن تدافع عن نفسك ضد الروس، ولكنهم فقدوا جاذبيتهم كعدو، وأصبح من الصعب أكثر فأكثر استخدامهم، ولذا لابد من إيجاد آخرين، وفى الواقع فإن الناس انتقدوا چورچ بوش لكونه غير قادر على توضيح ما الذى يحركنا الآن، وهذا أمر غير عادل بالمرة. فقبل منتصف الثمانينيات كان بإمكانك أن تستخدم إسطوانة الروس قادمون وتلومهم على أى شىء بدون أى مجهود وأنت نائم، ولكنه خسر تلك، وكان حتما عليه أن يأتى بأخرى جديدة، ومثلما فعل جهاز ريجان للعلاقات العامة فى الثمانينيات، فأصبح الإرهاب العالمى وتهريب المخدرات والمجانين العرب وصدام حسين أو هيتلر الجديد الذى سيغزو العالم. كان عليهم لزامًا الإتيان بالواحد تلو الآخر لإخافة الناس وإرهابهم حتى يعيشوا فى ذعر. حينئذ فقط تكون حققت انتصاراً رائعًا على جرينادا وبنما و جيوش عالمثالثية يمكنك سحقها حتى قبل أن تنظر إليها، وهو ما حدث بالفعل. وهذا أمر مريح فنحن أنقذنا فى آخر لحظة وهذه إحدى الوسائل التى يمكن من خلالها إبقاء القطيع الضال بعيدا عن أن يلفت انتباهه لما يحدث فعلا حوله، وغالبًا ماستكون كوبا هى الهدف القادم على القائمة، وهو ما سوف يتطلب استمرار الحرب الاقتصادية غير الشرعية، وربما كذلك احتمال إحياء حملة الإرهاب العالمى غير العادية. وربما كانت أكبر عملية إرهاب دولى منظم هى عملية مونجوس تحت إدارة الرئيس كنيدى ثم الأمور التى أعقبت ذلك ضد كوبا، ولم يكن هناك شىء يقارن بها -ولو من بعيد- ربما إلا الحرب ضد نيكاراجوا، إذ وصفت بأنها حرب ضد الإرهاب، ولكن المحكمة الدولية أدانتها على أنها عدوان. فهناك دائما هجوم إيديولوچى يؤدى فى النهاية لخلق وحش وهمى يعقبه حملات للتخلص من هذا الوحش، وذلك أمر خطير جدا، ولكن إذا تأكدت من أنهم سيتحطمون فربما سنقضى على هذا الوحش ونتنفس الصعداء.

* * *

٧

انتقاء التصور

لقد دام هذا الأمر لفترة من الزمن، ففى مايو ١٩٨٦ نشرت مذكرات السجين الكوبى أرماندو فالاديرز، وسرعان ماأصبحت حديث وسائل الإعلام، وسأقدم مثالين على ذلك، فوسائل الإعلام وصفت هذه الاعترافات على أنها " تقرير نهائى عن نظام التعذيب والسجن الذى يتبعه فيدل كاسترو لمعاقبة وطمس معارضيه" "لقد كان تقريراً موحيًا ولا ينسى" "للسجون المتدنية" والتعذيب اللا إنسانى وسجلا لعنف الدولة تحت إمرة أحد حكام هذا القرن المعروفين بأساليب القتل الجماعى، والذين كما نعرف من الكتاب بأنه " خلق نوع جديد من الاستبداد الذى أسس للتعذيب كأحد ميكانيزمات السيطرة الاجتماعية" فى "الجحيم الذى يسمى كوبا والذى عاش فيها فالاديرز" . هذه الأقوال مأخوذة من جريدتى الواشنطن پوست والنيويورك تايمز فى مراجعتهما للكتاب. لقد وصف كاسترو بأنه "ديكتاتور مجرم" فجرائمه تم الكشف عنها فقط فى هذا الكتاب وبشكل قطعى وجازم، حتى إن "من يدافعون عن الديكتاتور هم فقط المفكرون الغربيون "ذوو الدم البارد والسطحيون" على حد قول الواشنطن پوست. عليك فقط أن تتذكر بأن هذا هو تقرير ماحدث لشخص واحد. ولنفترض أنه صحيح ولا نثير أية أسئلة حول ماحدث لشخص واحد يقول إنه تعرض للتعذيب. ففى حفل استقبال فى البيت الأبيض لمناسبة الاحتفال بيوم حقوق الإنسان، أختير هذا الرجل من قبل رونالد ريجان لشجاعته وتحمله سادية ورعب هذا الطاغية الكوبى، ثم عين كممثل للولايات المتحدة فى لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، حيث تمكن من تقديم خدمات بالدفاع عن حكومتى جواتيمالا والسلفادور ضد التهم الموجهة لهما

بارتكاب جرائم بلغت درجة من الوحشية تجعل أى شىء عانى منه فالاديرز يبدو ضئيلا! فهكذا تُفسر الأشياء.

كان ذلك فى مايو ١٩٨٦، وهو خير دليل على عملية صناعة الإجماع، **ففى ذات الشهر تم القبض على أعضاء مجموعة حقوق الإنسان بالسلڤادور وعُذبوا؛ ذلك أن قادة الجماعة - بما فى ذلك هيربرت أنايا الذى كان مديرًا للجماعة - أرسلوا إلى سجن لاسبيرانزا أو سجن الأمل، وبينما هم فى السجن واصلوا الدفاع عن حقوق الإنسان، فقد كانوا محامين بلغ عددهم ٤٣٢ محام فى هذا السجن! وقد قاموا بتوقيع إقرار كتابى وقعه ٤٣ محامين شرحوا فيه أساليب التعذيب التى لاقوها بالتيار الكهربى وغيرها من الجرائم، بما فيها إحدى الحالات التى قام فيها بالتعذيب ميجور من أمريكا الشمالية يرتدى الزى الرسمى، وهذه شهادة شاملة وصريحة، بل حتى نادرة فى التفاصيل حول ما يحدث فى غرف التعذيب. وهذا التقرير المكون من ١٦ صفحة من شهادات المسجونين الموقعة، تم تسريبه خارج السجن، بالإضافة إلى شريط ڤيديو صور فيه الأفراد وهم يقلمون شهاداتهم داخل السجن حول التعذيب، وقدتم توزيعه، بواسطة قوة عمل بين الأديان تابعة لمقاطعة مارين، ورفضت الصحافة القومية وقنوات التليفزيون تغطيتها، سوى مقال فى صحيفة محلية فى سان فرانسيسكو فقط، على ما أعتقد. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها وقد كان هناك آنذاك عدد أكثر بقليل من " أولئك المفكرين الغربيين ذوى الدم البارد والسطحيين " ولم يكن أنايا هدفًا لأى ثناء، ولم يدع إلى حفل يوم حقوق الإنسان، كما لم يعين لأى منصب، فقد تم الإفراج عنه فى صفقة تبادل للسجناء، ثم اغتيل - غالبا - بواسطة قوات أمنية تساندها الولايات المتحدة، وقد نشرت معلومات ضئيلة جدا عن هذا الحادث، ولم تطرح وسائل الإعلام تساؤلات حول ما إذا كان كشف هذه الجرائم بدلا من السكوت عليها لربما أنقذ حياته من الموت.**

وهذا إن دل على شىء فهو يدل على الطريقة التى يُدار بها نظام جيد لتصنيع الإجماع، وعند مقارنة ماكشفه هيربرت أنايا فى السلڤادور، فإن مذكرات فالاديرز تبدو أشبه بالحبة إلى جانب الجبل، ولكن عليك القيام بوظيفتك، وهذا ماأخذنا للحرب القادمة، وحدسى أننا سنسمع المزيد والمزيد عن هذا حتى تحدث العملية القادمة.

وهناك عدة ملاحظات عن تلك الأخيرة، ولنلتفت فى النهاية لها، ولسوف أبدأ بالدراسة التى قامت بها جامعة ماساتشوستس التى سبق الإشارة إليها، حيث

قدمت بعض النتائج المهمة . فحينما سئل الناس فى الدراسة إذا ما كانوا يعتقدون بأن الولايات المتحدة لابد وأن تتدخل بالقوة لإنهاء إحتلال غير شرعى أو الإساءة إلى حقوق الإنسان، فكانت نسبة اثنين إلى واحد من الناس فى الولايات المتحدة أجابوا بالإيجاب، فنحن يجب أن نستخدم القوة فى حالة الاحتلال غير الشرعى وفى حالة الإساءة لحقوق الإنسان، وإذا ماكانت الولايات المتحدة لتتبع تلك النصيحة للزم علينا أن نهاجم السلفادور وجواتيمالا وإندونيسيا ودمشق وتل أبيب وكيب تاون وتركيا وواشنطن . . . وقائمة أخرى طويلة من الدول، فهى كلها حالات لاحتلال غير مشروع وعدوان وإساءة لحقوق الإنسان، وإذا ما عرفت الحقائق حول تلك الأمثلة سنعرف أن ما يقوم به صدام حسين من عدوان وجرائم يقع فى إطار ماذكر، وهى ليست أكثر تطرفًا مما ذكر . أما لماذا لم يتوصل أحد لتلك النتائج ؟ السبب هو أنه لا أحد يعلم! ففى نظام دعائى جيد لا أحد يعلم ما أتحدث عنه حينما أقدم هذه النماذج والأمثلة، وإذا ما أبديت اهتمامًا ستجد أن تلك الأمثلة صحيحة . **أحد هذه الأمثلة كان سائدا خلال حرب الخليج وفى فبراير فى منتصف حملة الهجوم، حينما طلبت الحكومة اللبنانية من إسرائيل تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥ والذى يطالب بالانسحاب الفورى وغير المشروط من لبنان، ويعود صدور القرار إلى شهر مارس ١٩٧٨ ومنذ ذلك الوقت كان هناك قراران متعاقبان طالبا بالإنسحاب الفورى غير المشروط لإسرائيل من لبنان. وبالطبع فإن إسرائيل لا تطبق أو تحترم هذه القرارات؛ لأن الولايات المتحدة تدعمها فى استمرار الاحتلال وفى الوقت ذاته فإن جنوب لبنان يتعرض للإرهاب، فهناك غرف ضخمة للتعذيب ترتكب فيها أعمال مفزعة، وهى تستخدم كقاعدة لمهاجمة مواقع أخرى فى لبنان، ومنذ ١٩٧٨ ولبنان يتم غزوها وبيروت تهاجم بالقنابل وسقط حوالى ٢٠٠٠٠ ألف قتيل، ثمانون بالمائة منهم مدنيون، ودمرت المستشفيات، وارتكبت أعمال إرهاب ونهب وسرقة. وهذا كله حسن، فالولايات المتحدة تدعم كل هذا. وهذا مثال واحد فقط لم نر شيئًا فى وسائل الإعلام عنه، أو حتى مناقشات حول ما إذا كانت إسرائيل والولايات المتحدة يجب عليهم مراعاة قرار مجلس الأمن ٤٢٥ أو حتى أى قرار آخر، ولم يطالب أحد بمهاجمة إسرائيل بالقنابل رغم أنه وفقا للمبادئ التى يؤمن بها ثلثا السكان لابد أن نقوم بمهاجمة إسرائيل، فتحت أى مقاييس هذا احتلال غير شرعى وانتهاك لحقوق الإنسان، وهذا مثال واحد فقط .**

٨

حرب الخليج

تعد حرب الخليج مثالا على أن النظام الدعائى الجيد يحقق نجاحًا، فالناس تقتنع إذا قلنا إننا حينما نستخدم القوة ضد العراق؛ فذلك لأننا نحترم مبدأ أن الاحتلال غير الشرعى والإساءة لحقوق الإنسان لابد وأن تجابه بالقوة، وهم لا يعرفون مامعنى أن تطبق هذه المبادئ عينها ضد سلوك الولايات المتحدة ذاتها، مما يدل على نجاح هائل للأساليب الدعائية. ولنحاول النظر فى حالة أخرى. فإذا ماحاولت التعرف على أسلوب تغطية الحرب منذ أغسطس ١٩٩٠، سوف تلاحظ أن هناك بعض الأصوات المفقودة والتى لا تُسمع، **فعلى سبيل المثال هناك معارضة عراقية ديموقراطية، فى الحقيقة هى معارضة عراقية شجاعة ومهمة وهى تعمل فى المنفى؛ لأنه لم يكن بإمكانها العمل فى العراق، وهى فى أوروبا بالأساس، وهم يعملون بالبنوك ومهندسون ومعماريون، ويتمتعون باللباقة ولديهم آراء جديرة بالاحترام. وفى فبراير السابق لعام حرب الخليج، حينما كان صدام حسين مازال صديقًا مفضلا لدى چورچ بوش وشريكًا تجاريًا، جاءت المعارضة العراقية لواشنطن تطالب بمساندة أمريكية لطلبهم بتدعيم ديموقراطية برلمانية فى العراق، فرفض طلبهم؛ لأن الولايات المتحدة لم يكن لديها اهتمام بذلك، ولم يكن هناك أى رد فعل فى السجلات الرسمية، ومنذ أغسطس أصبح من الصعب تجاهل وجودهم، ففى هذا الشهر انقلبنا على صدام حسين بعدما كان مفضلا لدينا لسنوات طوال، فهاهى معارضة عراقية لابد وأن لديها أفكارًا ما حول هذا الموضوع، وسيسعدهم أن يروا صدامًا غارقًا ومحاصرًا، فهو الذى قتل إخوانهم وأخواتهم وطردهم خارج البلاد، وهم يحاربون ضد هذا الطاغية طيلة الوقت الذى**

كان فيه رونالد ريجان وچورچ بوش يتعاملان معه بتفضيل، فماذا عن أصواتهم وآرائهم ؟ إذا ألقيت نظرة على وسائل الإعلام القومية؛ لتعرف حجم التغطية التى أعطيت للمعارضة العراقية من أغسطس حتى مارس ١٩٩١ فلن تجد كلمة واحدة مكتوبة، وهذا ليس عائد بالضرورة لكونهم غير لبقين، بلى فهم نشروا بيانات ومقترحات ولديهم مطالب، وإذا دققت فيها ستجدها لا تختلف كثيرا عن مطالب حركات السلام الأمريكية، فهم ضد صدام حسين، وهم ضد الحرب على العراق، وهم لايريدون لبلدهم أن تدمر، وما يريدونه هو حل سلمى، وهم يعلمون تمام العلم أنه كان بالإمكان تحقيق ذلك، ولكن هذه كانت وجهة نظر خاطئة، ولذلك هم خارج اللعبة. وبالتالى نحن لا نسمع أى رأى حول المعارضة العراقية الديموقراطية، وإذا أردت التعرف عليهم فعليك بقراءة الصحافة الألمانية أو البريطانية، هم لا يقولون الكثير عنهم، ولكنها صحافة عليها سيطرة أقل وتقول شيئًا ما. وهذا إنجاز هائل للدعاية، فأولا أصوات الديموقراطيين العراقيين تم استبعادها تماما، وثانيا لا أحد يلحظ ذلك، وهذا أمر مثير للاهتمام، ذلك أن مثل هذا الأمر يتطلب أناسًا تم تلقينهم حتى لا يلحظوا أننا لا نسمع أصوات المعارضة الديموقراطية العراقية ولا نسأل لماذا لنعرف الإجابة الواضحة، وهى لأن الديمقراطيين العراقيين لديهم أفكارهم وهم يتفقون مع حركات السلام الدولية؛ ولذا هم خارج اللعبة.

أما إذا تناولنا السؤال الخاص بالحرب، فإن هناك عدداً من الأسباب قدمت كمبرر للحرب، وهى أن المعتدين لا يجب أن يكافئوا، وأن العدوان لابد وأن يتم إبطاله باللجوء للعنف. هذا كان سبب الحرب، لم يقدم أى سبب آخر، فهل يمكن أن يكون هذا هو السبب الحقيقى للحرب؟ وهل هذه المبادئ التى تساندها الولايات المتحدة وهى أن المعتدين لا تجب مكافآتهم وأن العدوان لابد وأن يناهض باللجوء للقوة ؟ أنا لن أحاول أن أهين ذكاءك بتفنيد الحقائق، ولكن حقيقة الأمر هى أن تلك المناقشات يمكن دحضها فى دقيقتين من قبل أى مراهق متعلم، ورغم ذلك فلم يتم دحضها أبدا، ولتلقى نظرة على وسائل الإعلام والمعلقين الليبراليين والنقاد والناس الذين يقدمون شهاداتهم فى الكونجرس، ولترى إذا كان أحد قد طرح تساؤلات حول الفرضية القائلة بأن الولايات المتحدة تدافع عن تلك المبادئ،

فهل عارضت الولايات المتحدة العدوان الذى تقوم به هى ذاتها فى پنما، وأصرت على ضرب واشنطن بالقنابل لإبطال العدوان؟ **وحينما أعلن أن احتلال جنوب أفريقيا لناميبيا ١٩٦٩ احتلال غير شرعى، هل فرضت الولايات المتحدة حصاراً على الدواء والغذاء؟ هل أعلنت الحرب؟ هل هاجمت كيپ تاون؟ لا لم تفعل وإنما واصلت مايسمى "بالدبلوماسية الهادئة" لقرابة عشرين عامًا. لم يكن الأمر هادئًا طيلة العشرين عاما، ففى سنوات إدارتى كلّ من ريجان وبوش وحدهما قتل مالايقل عن ١,٥ مليون شخص بواسطة حكومة جنوب أفريقيا فى الأقطار المحيطة، ناهيك عمّا كان يحدث فى جنوب أفريقيا وناميبيا، وبشكل ما لم يؤثر هذا الأمر فى أرواحنا الحساسة. فقد واصلنا الدبلوماسية الهادئة، وانتهى بنا الأمر أن كافأنا المعتدين؛ حيث منحوا الميناء الأكبر فى ناميبيا والعديد من المزايا التى أخذت فى اعتبار مخاوفهم الأمنية، فأين تلك المبادئ التى نؤمن بها؟** مرة أخرى من العبث أن نبين أن هذه لا يمكن أن تكون الأسباب التى أعلنا من أجلها الحرب؛ لأننا فى حقيقة الأمر لا نؤمن بهذه المبادئ، ولكن لا أحد اهتم بالإشارة إلى النتائج التى أعقبت ذلك ولم تقدم أسباب للذهاب للحرب. لا شىء. لم يقدم سبب واحد للذهاب للحرب يمكن دحضه من قبل مراهق متعلم فى خلال دقيقتين، وهذا أيضا علامة من علامات الثقافة الشمولية، وهو أمر يجب أن يثير مخاوفنا؛ **ذلك أننا شموليون لدرجة أنه يمكن أن ننقاد للحرب بدون أى سبب، ويدون حتى أن يلاحظ أحد ذلك. هذه حقيقة مدهشة.**

قبل أن يبدأ الهجوم فى منتصف يناير، كشف استطلاع للرأى أجرته جريدة الواشنطن پوست ومحطة أيه. بى. سى عن أمور مهمة، فقد سُئل الناس لو أن العراق وافق على الانسحاب من الكويت فى مقابل اهتمام مجلس الأمن بمشكلة الصراع العربى الإسرائيلى: هل تفضلون ذلك؟ نسبة اثنين لواحد عبروا عن موافقتهم، وكذلك كان العالم كله بما فيه المعارضة العراقية. **ونقلت الصحف أن ثلثى الأمريكيين كانوا يفضلون هذا الترتيب** ومن المفترض أن الذين أعربوا عن تفضيلهم لهذا الترتيب لربما اعتقدوا أنهم الوحيدون فى العالم الذين يفكرون بهذه الطريقة. وبالتأكيد لم يقل أحد فى الصحافة بأن تلك فكرة جيدة. فالأوامر صدرت من واشنطن بأننا يجب أن نكون ضد "الربط" بمعنى آخر الدبلوماسية، وبالتالى

كان كل الناس ضد الدبلوماسية . حاول أن تجد تعليقًا واحدًا في الصحافة! يمكن أن تجد عمودًا للكاتب أليكس كوكبرن في لوس أنجلوس تايمز يجادل فيها بأنها فكرة جيدة. والناس الذين أجابوا عن هذا التساؤل لابد وأن لسان حالهم يقول لابد وأنني وحيد، ولكن هذا ما أعتقده بالفعل. فلنفرض أنهم عرفوا أنهم ليسوا بمفردهم وأن أناسًا آخرين يفكرون بذات الشيء، مثل المعارضة العراقية الديموقراطية، ولنفرض أنهم عرفوا بأن هذا الأمر ليس مجرد افتراض أو تخمينًا، وأن العراق في حقيقة الأمر قدمت ذات العرض، وأن هذا الأمر قد نشر بواسطة مسئولين أمريكيين على مستوى عال ثمانية أيام فقط قبل الحرب. ففي ٢ يناير نشر أولئك المسئولون تفاصيل عرض عراقي للانسحاب من الكويت في مقابل أن يعنى مجلس الأمن بمشكلة الصراع العربي الإسرائيلي، وكذا مشكلة أسلحة الدمار الشامل، وقد رفضت الولايات المتحدة التفاوض حول هذا الموضوع، ربما قبل غزو الكويت. ولنفترض أن الناس كانت على علم بالعرض الذي قدم وأيدوه، وأن هذا ما يجب أن يفعله أي شخص عاقل إذا كانوا مهتمين بالسلام كما هو الحال في حالات أخرى، في الحالات القليلة النادرة التي نريد فيها أن نبطل العدوان، ولنفترض أن ذلك أصبح معروفًا فلك أن تخمن! ولكن أنا أفترض أن ثلثي الأمريكيين - وهنا يتجلى بوضوح نجاح الدعاية - وربما لا أحد من أولئك الذين أجابوا على الاستطلاع كانوا على علم بأي من الأمور التي ذكرتها، فالناس اعتقدوا بأنهم بمفردهم؛ لذا كان من الممكن المضي قدمًا في سياسات الحرب بدون أي معارضة. وكانت هناك مناقشات حول ما إذا كانت العقوبات فعالة فقد ناقش مدير المخابرات المركزية الأمريكية ما إذا كانت العقوبات ذات فعّالية. ورغم ذلك لم تكن هناك نقاشات للسؤال الأكثر وضوحًا وهو هل أدت العقوبات وظيفتها بالفعل؟ حيث لم يكن من السهولة بمكان التفكير في أي سبب آخر للعروض العراقية للانسحاب والتي شهد على صحتها، أو في بعض الحالات التي نشرها مسئولون أمريكيون على مستوى عال ووصفوها بكونها "جادة" و"يمكن التفاوض بشأنها" فالسؤال الحقيقي إذن هو هل كان هناك مخرج ما؟ أي هل كان هناك مخرج مقبول لعامة الجمهور الأمريكي وللعالم وللمعارضة العراقية؟ هذه الأسئلة لم تطرح للنقاش، وهو أمر مهم بالنسبة لنظام دعائي يعمل جيدًا على ألا تناقش هذه

الموضوعات . وهذا الأمر يساعد رئيس اللجنة القومية للجمهوريين على القول بأنه إذا كان هناك أى ديموقراطى فى الحكم لم تكن الكويت لتحرر حتى اليوم. بإمكانه أن يقول ذلك ، ذلك أنه لا يوجد ديموقراطى واحد سيقول إننى لو كنت رئيسا لما تحررت الكويت اليوم وإنما لتحررت من قبل بزمن طويل ؛ لأنه كانت هناك فرص آنذاك كنت سأقتنصها ولتحررت الكويت بدون سفك دماء عشرات الآلاف من الأشخاص وبدون التسبب فى كارثة بيئية . لا يوجد ديموقراطى واحد ينطق بذلك . لم يتبن ديموقراطى واحد هذا الموقف ، هنرى جونزاليس وباربرة بوكسر تبنيا تلك المواقف ولكن عدد أولئك الذين تبنوا ذات الموقف كانوا هامشيين ، لدرجة أنهم اعتبروا غير موجودين . وبما أنه لا يوجد سياسى من الحزب الديموقراطى بإمكانه أن يقول ذلك ، فكلايتون يوتر أصبح بإمكانه أن يقدم بيانه . وحينما ضربت صواريخ سكود إسرائيل لم يهلل لذلك أحد فى وسائل الإعلام . **مرة أخرى هذه حقيقة مهمة عن النظام الدعائى الذى يعمل جيدا ، وربما نسأل ـ ولم لا ـ فعلى كل حال حجج صدام حسين بمثل جودة حجج چورچ بوش وماذا كانت إذن؟ فلنأخذ لبنان كمثال ، فصدام حسين يقول إنه لا يقبل أن تضم إسرائيل مرتفعات الجولان السورية والقدس الشرقية رغم إجماع مجلس الأمن ، وهو لا يقبل بالعدوان ، فإسرائيل تحتل جنوب لبنان منذ العام ١٩٧٨ فى خرق واضح لقرارات مجلس الأمن وترفض أن تلتزم بها . خلال تلك الفترة هاجمت إسرائيل كل لبنان ومازالت تهاجم أجزاء منها . وهو لا يقبل بذلك وربما يكون قد قرأ تقرير منظمة العفو الدولية عن المجازر الإسرائيلية فى الضفة الغربية وقلبه ينزف ؛ لأنه لا يتحمل ذلك ، والعقوبات لا قيمة لها ؛ لأن الولايات المتحدة تستخدم حق الڤيتو ضد هذه العقوبات ، والمفاوضات لن تكون فعالة ؛ لأن الولايات المتحدة تعترضهم فماذا يبقى غير القوة؟ لقد انتظر طويلا . انتظر لمدة ثلاثة عشر عاما فى حالة لبنان وعشرين عاما فى حالة الضفة الغربية . هذه الحجة ليست غريبة عنكم فقد استمعتم لها من قبل ، والفارق الوحيد بين هذه الحجة والأخرى التى استمعتم لها هى أن صدامًا بإمكانه القول بأن العقوبات والمفاوضات ليست فعالة ؛ لأن الولايات المتحدة تعترضها . ولكن چورچ بوش ليس بإمكانه أن يقول ذلك ؛ لأنه على ما يبدو أن العقوبات قد نجحت بالفعل ، وكانت هناك أسباب تدفعنا للاعتقاد بأن المفاوضات**

كان بإمكانها أن تنجح، غير أنه رفض أن يواصلها وقالها صراحة: إنه لن تكون هناك مفاوضات. هل وجدت أحدا فى وسائل الإعلام يشير إلى هذا الأمر ؟ لا بالطبع فهذه أمور تافهة. وهى مرة أخرى من الأمور التى من شأن أى مراهق متعلم أن يدركها فى دقيقة واحدة، ولكن لا أحد أشار إلى ذلك الأمر، لا معلق ولا كاتب رأى ، وهذا مرة أخرى دلالة على ثقافة شمولية تدار بشكل جيد وهى تظهر بأن تصنيع الإجماع يعمل جيدا.

أما آخر تعليق حول هذا الأمر يمكننا تقديم العديد من الأمثلة، ولنأخذ مقولة **إن صدام حسين هو وحش على وشك أن يغزو العالم، كما هو شائع بشكل كبير فى الولايات المتحدة . فقد تم تلقين الناس مرة بعد أخرى أنه - صدام حسين - سيأخذ كل شىء ، وأن علينا أن نوقفه الآن، ولكن كيف أصبح بمثل هذه القوة؟ فهذه دولة عالمثالثية صغيرة لا تملك أى قاعدة صناعية. وقد حاربت العراق إيران لقرابة ثمانى سنوات، وهى إيران مابعد الثورة التى خسرت معظم قواتها المسلحة (قبل حرب العراق) وكانت العراق تتمتع ببعض التأييد الخارجى، فعلى سبيل المثال ساندها كل من: الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وأوروبا ومعظم الدول العربية والدول العربية المنتجة للبترول، ورغم ذلك لم تستطع هزيمة إيران، ولكن فجأة أصبح بإمكانها أن تغزو العالم! هل وجد أحد يشير إلى هذا الأمر؟ حقيقة الأمر هى أن العراق دولة عالمثالثية بجيش من الفلاحين** والآن كشف النقاب عن أنه كان هناك أطنان من المعلومات غير صحيحة حول عمليات التحصين والأسلحة الكيماوية، ولكن هل عثرت على أى شخص يوضح هذا الأمر؟ لا لم تجد أى شخص لتوضيح ذلك وهذا أمر عادى. لاحظ أن هذا الأمر قد تم بعد عام واحد فقط مما حدث مع مانويل نورييجا، فنورييجا هو "بلطجى" صغير بالقياس لصديق چورچ بوش صدام حسين أو صديق چورچ بوش الآخر فى بكين أو حتى چورچ بوش نفسه. بالقياس لهؤلاء مانويل نورييجا يعد بلطجيًا صغيراً. هو سيىء ولكنه ليس بلطجيًا عالميًا من النوع الذى نرغبه، لقد تحول إلى مخلوق أكبر من حجمه، وكان على وشك أن يدمرنا، حيث يتزعم تهريب المخدرات، وكان علينا أن نتحرك بسرعة ونحطمه، وربما نقتل مائتين أو ربما ألف شخص ونعيد السلطة إلى ٨٪ من

الاوليجاركية البيضاء ونجعل الضباط العسكريين الأمريكيين مسيطرين على كل مستويات النظام السياسى. كان علينا عمل كل ذلك؛ لأنه يجب علينا أن ننقذ أنفسنا، أو كنا سنتعرض للتدمير من قبل هذا الوحش. وبعد مرور عام واحد حدث الشىء ذاته من قبل صدام حسين، فهل أشار أى أحد لهذا الأمر ؟ هل أوضح أحد ما حدث بالفعل ولماذا ؟ عليك البحث بشدة من أجل الإجابة.

لاحظ كذلك أن الأمر لا يختلف كثيراً عن لجنة كريل التى نجحت فى تحويل السكان المسالمين إلى أناس محكومين بهستيريا تدمير كل ما هو ألمانى بذات الحجة وهو أن ننقذ أنفسنا من الألمان الذين يمزقون أذرع الأطفال البلچيك. وربما تكون الأساليب أكثر تعقيدا مع وجود التليفزيون والأموال الكثيرة، ولكنها مازالت تقليدية. لنعود لتعليقى الأساسى، أعتقد أن الموضوع ليس مجرد معلومات مشوهة وحرب الخليج، فالموضوع أكثر اتساعًا وتعقيداً، الموضوع هو ما إذا كنا نرغب فى العيش تحت مايمكن أن يوصف بأنه شمولية مفروضة بشكل ذاتى مع تهمّيش كامل للقطيع الضال، والمساق وهو مذعور ويصرخ بشعارات وطنية وخائف على حياته ويعجب بقادته الذين أنقذوا حياته من التدمير، بينما الجماهير المتعلمة تقوم بإعادة ترديد الشعارات التى من المفترض أن يرددوها، ويتدهور المجتمع فى الداخل، وينتهى بنا الأمر أن نعمل كدولة مرتزقة على أمل أن يمولنا الآخرون؛ لكى ندمر العالم؟ هذه هى الخيارات، أى الخيار الذى يجب أن تواجهه ؟ من يملك الإجابة على هذه الأسئلة هم أناس مثلك ومثلى.

* * *

٩

الصحفى القادم من المريخ

كيف يجب تغطية حملة الحرب على الإرهاب صحفيا؟!

[النص التالى هو نص معدل من حديث ألقاه الكاتب بمناسبة العيد الخامس عشر لمؤسسة (فير) التى تعنى بمبادئ الدقة والوضوح فى التغطية الصحفية فى تاون هول بمدينة نيويورك فى ٢٢ يناير ٢٠٠٢].

يبدو أن الموضوع المناسب لمثل تلك الاحتفالية برأيى هو كيف عالجت وسائل الإعلام القصة الخبرية الأهم خلال الشهور الماضية، وهى بطبيعة الحال موضوع "الحرب على الإرهاب" أو مايسمى كذلك، ولاسيما فى العالم الإسلامى. وأنا أعنى بمصطلح وسائل الإعلام هنا التعريف الأوسع الذى يشمل دوريات التعليق والتحليل والرأى، أو الثقافة الفكرية بشكل أعم. هذا برأيى موضوع غاية فى الأهمية؛ فقد تناولته مؤسستكم (مؤسسة الدقة والوضوح للتغطية الصحفية) إلى جانب مؤسسات أخرى. ورغم ذلك قد لا يبدو أنه موضوع مناسب لحديث والسبب أنه يتطلب تحليلا مفصلا؛ لذا ماأود القيام به هنا هو اتباع منهاج مختلف فى معالجته، وأتساءل كيف يمكن معالجة القصة الخبرية بما يوافق المبادئ العامة المتفق عليها كإرشادات، مثل مبادئ الوضوح والدقة وهكذا؟ ولنتناول هذا الأمر من خلال تجربة فكرية. لنفترض أن هناك كائنًا فضائيًا أو شخصًا قادمًا من المريخ على درجة من الذكاء، وقد قيل لنا إن الكائنات الفضائية هى فى العادة من الذكور، ولذا سأشير له بكلمة "هو" ولنفترض أن هذا الكائن التحق بهارفارد وكلية الصحافة بجامعة كولومبيا وتعلم كل الأمور وصدقها، فكيف يمكن لكائن مريخى

أن يتعامل مع مثل هذه القصة الخبرية؟ أعتقد أنه سيبدأ بملاحظات واقعية سيرسلها إلى جريدته التي تصدر في المريخ. وإحدى هذه الملاحظات هي أن الحرب على الإرهاب لم تعلن يوم ١١-٩ بل تم إعادة الإعلان عنها في ذلك اليوم، واستخدم ذات الحديث الذي استخدم منذ عشرين عاما . فالرئيس ريجان كما تعلمون جاء إلى السلطة معلنا أن الحرب على الإرهاب ستكون جوهر السياسة الخارجية الأمريكية وندد بما أسماه " وباء الإرهاب الشرير " وكان التركيز على الإرهاب العالمي الذي ترعاه الدول في العالم الإسلامي وكذلك في أمريكا الوسطى، وقد وصف الإرهاب بأنه وباء ينشره " خصوم الحضارة الفاسدون " وذلك لنرتد" للهمجية في العصر الحديث " ، وفي حقيقة الأمر فأنا أنقل هنا عن أحد العناصر المعتدلة في الإدارة، وزير الخارجية چورچ شولتز، والعبارة التي نقلتها عن ريجان تتعلق بالإرهاب في الشرق الاوسط ،وكان ذلك في العام ١٩٨٥ ، وكان كذلك هو العام الذي اختار فيه رؤساء التحرير في الاستطلاع السنوي لوكالة الأسوشيتد پرس الإرهاب الدولي في المنطقة القصة الخبرية الرئيسة. إذن فالنقطة الأولى التي سيغطيها الكائن الفضائي هو أنه في عام ٢٠٠١ كانت تلك هي القصة الخبرية الأولى للمرة الثانية، وأن الحرب على الإرهاب أعيد الإعلان عنها كما هو الحال في السابق.

بالإضافة لذلك هناك استمرارية مدهشة، فذات الأشخاص مازالوا في المناصب الرئيسة ، حيث دونالد رامسفيلد(*) يدير الناحية العسكرية من المرحلة الثانية من الحرب على الإرهاب، وهو قد شغل منصب المبعوث الخاص لريجان لمنطقة الشرق الأوسط خلال المرحلة الأولى في الحرب على الإرهاب، ولاسيما في العام ١٩٨٥

(*) [صافح دونالد رامسفيلد صدام حسين في المرة الأخيرة التي رآه فيها بحرارة، كان ذلك منذ ٢٠ سنة تقريبا، ٢٠ ديسمبر ١٩٨٣ . وسجل فريق تليفزيوني عراقي رسمي تلك اللحظة. كان وزير الدفاع الحالي عندئذ مواطنا عاديا أرسله الرئيس رونالد ريجان إلى بغداد كمبعوث خاص. ووفق برقية لوزارة الخارجية الأمريكية أفرج عنها أخيرا، وحصلت نيوزويك على نسخة منها، بدا صدام، وكان مسلحًا بمسدس حول خصره، مفعمًا بالحيوية وواثقًا من نفسه، ولقد نقل رامسفيلد، حسبما كتب الشخص الذي كان يدون محضر الجلسة، تحيات الرئيس وعبر عن سروره لوجوده في بغداد. وبعد ذلك تطرق الرجلان إلى القضايا الجادة، وتحدثا عن الحاجة لتطوير العلاقات بين بلديهما].

من مجلة نيوزويك النسخة العربية، الصادرة في ١ أكتوبر ٢٠٠٢، صفحة ٣٠، بقلم كريستوفر ديكي وإيڤان توماس - الناشر.

أما الشخص الذى عين قبل شهرين ليدير ديبلوماسية الحرب على الإرهاب فى الولايات المتحدة، فقد كان چون نيجروبونتى والذى كان مشرفًا على العمليات العسكرية الأمريكية فى هندوراس، حيث موقع القاعدة الرئيسية للعمليات خلال المرحلة الأولى فى حرب الولايات المتحدة ضد الإرهاب.

ممارسة عامل القوة

فى عام ١٩٨٥ كان الإرهاب فى الشرق الأوسط إذن هو القصة الخبرية الرئيسة، ولكن الإرهاب فى أمريكا اللاتينية جاء فى المرتبة الثانية، وفى الواقع فإن شولتز اعتبر أن مايحدث فى أمريكا اللاتينية هو دليل ينذر بالخطر من وباء الإرهاب، والمشكلة الأساسية كما يوضحها تكمن فى كونه " خطراً سرطانيًا فى قلب هذا الجزء من الكرة الأرضية الذى يتبعنا أو فى محيطنا "، ويجب علينا أن نتخلص منه، ومن الأفضل أن يتم ذلك بسرعة؛ لأن هذا التهديد السرطانى كان يتبنى صراحة ذات أهداف هيتلر التى وردت فى كتابه "كفاحى" والتى كانت على وشك أن تسيطر على العالم، وكان الأمر جد خطير حتى إنه فى يوم القانون عام ١٩٨٥ أعلن الرئيس حالة الطوارئ على مستوى الأمة، وبرر ذلك بسبب "التهديد فوق العادى للأمن القومى الأمريكى و أهداف السياسة الخارجية الأمريكية" على حد تعبيره والتى يمثلها هذا "الخطر السرطانى". ويوم القانون بالمصادفة هو ذلك اليوم الذى يحتفل به فى بقية أنحاء العالم على أنه يوم التضامن مع نضال العمال الأمريكيين، أما فى الولايات المتحدة فهو إجازة قومية وهو يوم الأول من مايو.

حالة الطوارئ تلك تم تجديدها سنويا حتى تم استئصال الخطر السرطانى فى النهاية. وأوضح وزير الخارجية الأمريكية شولتز بأن الخطر كان من الشدة لدرجة أنه لم يكن من الممكن أن تتبع الوسائل السهلة، وعلى حد تعبيره فى حديث له فى ١٤ أبريل ١٩٨٦ فإن " المفاوضات تكون مرادفة للاستسلام إذا لم يكن عامل القوة محسوسا على مائدة المساومة " **وندد شولتز بأولئك الذين " يسعون لاستخدام الوسائل القانونية الطوباوية مثل الوساطة الخارجية والأمم المتحدة والمحكمة الدولية بينما يتجاهلون تأثير عامل القوة على المعادلة".**

لقد مارست الولايات المتحدة بالفعل عنصر القوة بواسطة قوات المرتزقة

المتواجدة فى الهندوراس تحت إمرة چون نيجروبونتى ، وبينما فى الوقت ذاته كانت تعترض - وبنجاح - اتباع الوسائل القانونية من خلال المحكمة الدولية فى دول أمريكا اللاتينية ، وبطبيعة الحال ضد الخطر السرطانى ذاته المبيت النية على غزو العالم . [يقصد هنا الولايات المتحدة] .

ووافقت وسائل الإعلام على ذلك ، فالسؤال الوحيد الذى طرح كان حول التكتيكات المستخدمة ، وظهر الجدل التقليدى بين الحمائم والصقور **وقد عبر عن مواقف الصقور بوضوح محررو دورية النيو ريپابليك (الجمهورى الجديد) فى ٤ أبريل ١٩٨٤ والذين طالبوا حسب كلامهم أن نواصل إرسال المعونات العسكرية إلى " فاشىٍّ أمريكا اللاتينية بغض النظر عن عدد ضحاياهم " ؛ لأن " هناك أولويات أمريكية تفوق موضوع حقوق الإنسان فى السلڤادور " وربما فى أى مكان آخر فى المنطقة . هكذا يفكر الصقور.** أما الحمائم فقد جادلوا بأنه من الناحية الأخرى فإن هذه الوسائل غير مجدية ، واقترحوا وسائل بديلة لإعادة نيكاراجوا التى تمثل الخطر السرطانى فى رأيهم إلى "حالة أمريكا الوسطى" وفرض " معايير إقليمية" عليها وأنا هنا أنقل عن الواشنطن پوست (١٤ مارس ١٩٨٦و ١٩ مارس ١٩٨٦) وحالة أمريكا الوسطى والمعايير الإقليمية كانت تلك المتمثلة فى دولتى الإرهاب السلڤادور وجواتيمالا اللتين مارستا القتل والتعذيب والتدمير بطرق لا حاجة للخوض فيها . نحن إذن بحاجة لأن نعيد نيكاراجوا لحالة أمريكا اللاتينية حسب وجهة نظر الحمائم كذلك . وقد انقسمت مقالات الرأى والافتتاحيات فى الصحف القومية حول هذا الأمر بنسب متساوية لصالح كل من الحمائم والصقور مع قليل من الاستثناءات ، ولكنها كانت على مستوى هامش الخطأ الإحصائى ، وهناك معلومات منشورة وهى موجودة منذ فترة إذا أردت قراءتها . وفى المنطقة الأخرى حيث كان الوباء منتشرا فى ذلك الوقت فى الشرق الاوسط ، فإن التماثل والتطابق كان أكثر حدة .

هى الحرب ذاتها ولكن الأهداف مختلفة

إذن فالكائن الفضائى القادم من المريخ سيهتم بالتأكيد بهذا الحديث المتواصل بشكل مذهل ، حتى إن الصفحات الأولى للجرائد الصادرة فى المريخ سوف تشير إلى أن مايسمى «الحرب على الإرهاب» قد أعيد الإعلان عنها بواسطة ذات

الأشخاص ضد أهداف متشابهة **رغم أنها قد تشير إلى أنها ليست تماما الأهداف ذاتها. فخصوم الحضارة في عام ٢٠٠١ كانوا في الثمانينيات محاربي الحرية الذين دربتهم وسلحتهم المخابرات المركزية الأمريكية ومعاونوها**، وقد دربوا بواسطة القوات الخاصة ذاتها الذين يبحثون عنهم الآن في كهوف أفغانستان، وكانوا أولئك اللبنة الأولى في الحرب الأولى على الإرهاب، ويتصرفون بالطريقة ذاتها التي تصرفت بها الوحدات الأخرى في الحرب على الإرهاب

ووفق عدد جريدة الوول ستريت چورنال الصادر بتاريخ ٢٢يناير٢٠٠١، فإن اثنين من زعماء الفصائل على وشك الدخول في حرب أخرى، ولنأمل ألا تكون كذلك. كل هذا يعد بمثابة عناوين للأخبار في الصحافة الصادرة في المريخ، ومتصل بها بالطبع ما يعنيه هذا للسكان المدنيين، وهذا بدوره يشمل أعدادًا كبيرة من الناس المحرومين من إمدادات الطعام والاحتياجات الأساسية، رغم أن الطعام قد يكون متوافراً لشهور، ولكن ليس بالإمكان بسبب الظروف، وذلك رغم مرور أربعة أشهر. ولا نعرف نتائج هذا الأمر ولن نعرف أبدا؛ **لأن هناك مبدأ للثقافة الفكرية وهو رغم أنك تتقصى جرائم العدو بإفراط، فأنت لن تتقصى جرائمك، وهو أمر مهم، وبالتالي يمكننا فقط أن نعطي أرقامًا تقريبية غامضة حول عدد جثث الڤيتناميين أو السلڤادوريين الذين خلفناهم وراءنا.**

هرطقة مبدأ المساواة الأخلاقية

فكما ذكرت كان بإمكان ذلك أن يكون عناوين الصحف في المريخ، والصحفي الجيد القادم من المريخ، سيرغب في توضيح فكرتين رئيسيتين: الأولى: هي معرفة مانعنيه على وجه التحديد بمفهوم الإرهاب، والثانية ما الاستجابة المناسبة ضده؟ أيما كانت الإجابة على التساؤل الثاني فإن الاستجابة الصحيحة لابد وأن تتفق مع بعض القضايا المسلم بها أخلاقيًا، أو على الأقل كما يفهمها هؤلاء القادة الذين أعلنوا الحرب على الإرهاب؛ لأنهم يخبروننا دائما أنهم مسيحيون أتقياء، والذين بالضرورة يقدسون الإنجيل، ويحفظون عن ظهر قلب معنى كلمة "منافق" والتي ورد ذكرها في الأناجيل، وبالتحديد التعريف الذي يقول بأن المنافقين هم أولئك

الذين يطبقون على الآخرين المعايير التى يرفضون أن تطبق عليهم. وبالتالى ما يفهمه الكائن المريخى إذن هو أنه لتحقيق الحد الأدنى أخلاقيا علينا أن نتفق بل ونصر على أنه إذا كان هناك ثمة فعل ما مناسب لنا، هو إذن مناسب للآخرين، وإذا أعتبرناه خطأ إذا قام به الآخرون فهو كذلك خطأ إذا قمنا به نحن، وهذا إذن أحد الأمور البديهية أخلاقيا، وفى حالة ما إذا أدرك الكائن المريخى هذا الأمر، فسوف يحزم حقائبه ويؤوب إلى المريخ؛ لأن عمله البحثى انتهى حينئذ، فليس من المرجح أن يعثر على عبارة واحدة فى التغطية الصحفية الضخمة حول الحرب على الإرهاب يمكنها حتى أن تقترب من الحد الأدنى من تلك المعايير الأخلاقية. ولكن لا تأخذوا رأيى بشكل مسلم به، فقط جربوا أن تمروا بهذه الخبرة الفكرية. ولا أرغب هنا فى المبالغة فربما بإمكانكم أن تجدوا تلك العبارة الآن، ولكنه أمر جد نادر الحدوث.

هذه البديهية الأخلاقية رغم أنها معترف بها على مستوى عامة الجمهور، إلا أنها [عند النخبة] تفهم على أنها هرطقة خطيرة، ومن الضرورى إقامة حواجز غير قابلة للاختراق ضدها حتى قبل أن تظهر أعراضها على أى شخص، رغم أن ذلك أمر نادر الحدوث. فى الواقع يوجد فهرس لغوى متاح فى حال ما إذا تجرأ أحد على الانخراط فى ترديد هذه الهرطقة، وهو أنه يجب علينا أن نحترم هذه القضايا المسلم بها أخلاقيا والتى نتظاهر بأننا نقدسها. هؤلاء المسيئون مذنبون ضد ما يمكن أن يطلق عليه النسبية الأخلاقية، وهو يعنى اقتراح أننا نطبق على أنفسنا المعايير التى تطبق على الآخرين أو ربما المساواة الأخلاقية، وهو مصطلح صكته چين كيركباتريك لدرء خطر أن شخصا ما قد يجرؤ على النظر فى جرائمنا، أو لربما يرتكبون جريمة تعنيف أمريكا أو أنهم يكنون العداء لما هو أمريكى، وهو مفهوم مثير للاهتمام. فهذا المصطلح يستخدم فى أماكن أخرى من العالم وهى الدول الشمولية، فعلى سبيل المثال فى روسيا فى الأيام الخوالى، كان العداء للاتحاد السوڤييتى هو أخطر الجرائم. وإذا ما نشر أحد كتابًا فى إيطاليا ولنفترض أنه بعنوان المعادون لإيطاليا، لك أن تتخيل حجم رد الفعل فى شوارع ميلانو وروما، أو حتى فى أية دولة، حيث الحرية والديموقراطية أمور تؤخذ مأخذ الجد.

تعريف غير مستخدم

لنفترض أن الكائن المريخى لن ترهبه حملات السب والافتراء الحتمى، ولنفترض أنه أصر على الالتزام بأبسط القواعد الأخلاقية البديهية، إذا فعل ذلك فليس بإمكانه شيء سوى العودة لوطنه، ولكن لنفترض بدافع الفضول أنه قرر البقاء وأن يبحث بشكل أكثر عمقا، ماذا سيحدث آنذاك؟ سنعود إذن للسؤال الأول: ماهو الإرهاب؟ وهو يبقى مهما.

وهناك طريق مناسب يمكن للمخلوق الفضائى أن يسلكه لإيجاد إجابة للسؤال: أن تبحث عن أولئك الناس الذين أعلنوا الحرب على الإرهاب، ومعرفة ماهو الإرهاب بالنسبة لهم، وهذا أمر عادل. حيث هناك بالفعل تعريف رسمى ورد فى قانون الجيش الأمريكى وأماكن أخرى، فهو معرف بشكل مختصر. الإرهاب - حيث أنقل من ذلك القانون - تم تعريفه بأنه " **الاستخدام المحسوب للعنف، أو التهديد باستخدام العنف، لتحقيق أهداف سياسية أو دينية أو أيديولوچية فى الأساس، من خلال التخويف وإدخال الذعر والإجبار** " حسنا هذا أمر يبدو بسيطا، وفى اعتقادى هو تعريف مناسب. ولكننا دائما ما نقرأ أن مشكلة تعريف الإرهاب هى مشكلة معقدة، ولربما يتساءل الكائن المريخى لماذا هذا الأمر معقد؟! وهناك إجابة لهذا التساؤل، ذلك أن التعريف الرسمى هو كم مهمل غير مستخدم، وهو كذلك لسببين رئيسيين، أولهما **أنه تفسير لصيق لسياسة الحكومة الرسمية!** وفى الحقيقة فإنه حينما يكون بالفعل سياسة الحكومة، يطلق عليه صراع أو هجوم مضاد للإرهاب. ومن المصادفة أنه ليست الولايات المتحدة فحسب هى التى تسلك هذا المسلك، ذلك أنه - على حد علمى - هذه الممارسة تكاد تكون عالمية، وأحد الأمثلة على ذلك يعود إلى منتصف الستينيات حينما نشرت مؤسسة راند للأبحاث - وهى مؤسسة متصلة بالپنتاجون - مجموعة من الوثائق المهمة لقوات مكافحة المتمردين اليابانية، وهى متعلقة بالهجوم اليابانى على منشوريا وشمالى الصين فى الثلاثينيات [من القرن العشرين] وقد كنت مهتماً بذلك، ونشرت مقالا حول هذا الموضوع فى ذلك الوقت أقارن فيه وثائق قوات مكافحة المتمردين اليابانية مع تلك الخاصة بالقوات الأمريكية فى جنوبى ڤيتنام، وهى تكاد تكون متطابقة، غير أنه يجب القول بأن المقال لم يلق ترحيبا. ولكن على أية حال يظل الأمر حقيقة

ـ وعلى قـدر علمي ـ هي حـقـيـقـة علـمـيـة، وهو أحـد أسـبـاب لماذا ليس بالإمكان استخدام التوصيف الرسمي. أما السبب الآخر فهو بسيط للغاية؛ **ذلك لأنه يقدم كل الإجابات الخاطئة وبشكل جذري حول من هم الإرهابيون؟** ولذا كان لابد وأن يهـمل التـعريف الأول، وكـان عليك البـحث عن تعـريفـات أكثـر تعـقيـدا، والتي بإمكانها أن تقدم الإجابات الصحيحة، وهذا أمر ليس من السهولة تحققه، ولهذا كثيرا ما تسمع أنه موضوع مستعص، وأن العقول الكبيرة هي التي بإمكانها التعاطي معه وهكذا. لحسن الحظ أن هناك حلاً ما وهو أن تعرف الإرهاب على أنه الإرهاب الذي يمـارسونه ضدنا أيما كنا نحن. على قدر علمي هذا الأمر عـالمي، فـهو في الصحافة كما هو في الأكاديميا، وهو أيضا ـ تاريخيا ـ أمر عـالمي فأنا لم أعثر على دولة لـم تتـبع هذا الطريق. لحسن الحظ إذن هناك مـخـرج لهـذه الأزمـة، **ومع التـوصـيف المجـدي للإرهاب، بإمكاننا أن نستـخلص النتـائج التي تقـرؤها طوال الوقت، وهي على وجه التـحديد أننا وحلفاءنا الضـحايا الأسـاسـيـون للإرهاب! والإرهاب هو سلاح الضعيف.**

ولكن بطبيعة الحال فإن الإرهاب هو سلاح القوي مثله مثل أي سلاح آخر، ولكنه سـلاح الضـعـفـاء فـقط بالتـعريف، وبمجـرد ما تفـهم أن الإرهاب يعني فـقط الإرهاب الذي يمـارس ضـدنـا، عندئذ يصبح الإرهاب هو سـلاح الضـعـيف من حيث التعريف الإجرائي. ولذا فالناس الذين يكتبون باستمرار والذين تقرأ لهم في الصحف أو الدوريات هم على حق، هو في النهاية تحصيل حاصل.

إرهاب الكتب المدرسية

إذا فرضنا أن الكائن المريخي سيواصل تحديه لهذا التقليد العالمي، وهو فعليا يقبل بالحـقـائق الأخلاقـيـة المسلم بها والتي يتم الوعظ بهـا، وهو أيضا يقبل بالتـعـريف الرسمي الأمريكي للإرهاب، أنا أقول إنه حينئذ يصبح ـ كما نقول ـ إنسانًا من خارج الكوكب، من الفضاء الخارجي، ولكن فلنواصل. إذا ذهب إلى هذا الحد فـلابد وأن هناك أمثلة واضحة على الإرهاب، ١١ سبـتـمبر هو مـثال مذهل للجرائم

الإرهابية، ومثال آخر واضح هو رد الفعل الأنجلو-أمريكي الرسمي والذي أعلن على لسان الأدميرال سير مايكل بويس رئيس هيئة الأركان البريطاني ونشر في أحد موضوعات الصفحة الأولى لجريدة النيويورك تايمز في ٢٨ أكتوبر ٢٠٠١، والتي أعلم فيها الناس في أفغانستان بأن الولايات المتحدة وبريطانيا ستواصلان هجماتهما ضدهم حتى يقوموا بتغيير قيادتهم.

عليك أن تلحظ كيف أن هذا مثال للإرهاب الدولي وفقا للكتاب - حسب التعبير الشائع -، وهو كذلك أيضا وفق التعريف الرسمي للإرهاب، والذي لن أعيد قراءته ولكن إذا فكرت بالأمر ستجد أنه مثال رائع. أسبوعان قبل هذا التاريخ أخبر چورچ بوش الأفغان بأن الهجمات ستستمر حتى يسلموا المتهمين، وتذكر أن القضاء على طالبان كان مجرد فكرة طارئة ظهرت بعد أسبوعين فقط من بدء القصف الجوي، وهي بالأساس لصالح المفكرين حتى يكتبوا عن عدالة الحرب، وكان هذا بطبيعة الحال إرهابا وفق الكتاب؛ ذلك أننا سنواصل مهاجمتكم حتى تسلمونا بعض الأشخاص الذين نريدكم أن تسلموهم. وقد طلب نظام طالبان دليلا ما ولكن الولايات المتحدة عاملت الطلب باحتقار ورفضته. وفي الوقت ذاته رفضت بشكل قطعي حتى أن تنظر في طلبات تسليم المتهمين، والتي ربما كانت جادة أو ربما لم تكن كذلك، لا نعرف لأن تلك الطلبات رفضت منذ البداية.

وبالتأكيد فإن المخلوق الفضائي سيسجل كل هذا، وإذا قام ببعض البحث سيعثر على الإجابات سريعًا ليضيف العديد والعديد من الأمثلة، والأسباب بسيطة للغاية. ذلك أن حكام العالم عليهم أن يوضحوا بأنهم لن يخضعوا لأي سلطة. ولذا هم لا يقبلون بفكرة أنه لابد وأن يقدموا دليلاً، وهم لا يوافقون على تقديم طلبات لتسلم المتهمين، وفي الواقع هم يرفضون تخويل مجلس الأمن، هم يرفضونه قطعيا، فقد كان بإمكان الولايات المتحدة الحصول على تخويل واضح وغير غامض كان بإمكانها الحصول عليه ولكن رغم ذلك رفضت هذا الخيار.

وهذا يبدو أمرًا مفهومًا، وفي الواقع هناك مصطلح يصف هذه الحالة في أدبيات العلاقات الدولية والديبلوماسية، ويطلق عليه «تأسيس المصداقية»، والمصطلح الآخر لها هو أن نعلن أننا دولة إرهابية، وعليك أن تنتبه للنتائج إذا ما حاولت

الوقوف فى طريقنا! هذا بطبيعة الحال إذا ماكنا سنستخدم الإرهاب بمعناه الرسمى كما عرفه جيش الولايات المتحدة ، وهذا أمر غير مقبول للأسباب التى ذكرتها .

حالات غير مثيرة للجدل

لنعود مرة أخرى للبديهيات الأخلاقية ، فحسب المعتقد الرسمى الذى عليه إجماع عالمى ويوصف بكونه عادلاً وواضحًا ، فإن الولايات المتحدة لديها الحق فى شن حرب إرهابية ضد أفغانستان حتى تقوم بتسليم المتهمين للولايات المتحدة والتى ترفض بدورها تقديم دليل أو حتى تقديم طلب لتسليم المتهمين ، أو حسب توصيف بويس حتى يغيروا قيادتهم. إن أى شخص غير منافق - وفق التعريف الإنجيلى - سوف يستنتج على الفور بأن سكان هايتى - إذن - من حقهم شن حملة إرهابية واسعة النطاق ضد الولايات المتحدة حتى تسلم القاتل إيمانويل كونستانت والذى أدين بقيادة قوات إرهابية مسئولة عن مقتل أربعة إلى خمسة آلاف ضحية . ولا حاجة بنا للسؤال عن الدليل فى هذه الحالة . لقد طالبت هايتى مراراً بتسليم المتهمين وآخرها فى ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١ ، تقريبا فى الوقت ذاته الذى كان فيه حديث حول ضرورة إخضاع أفغانستان بالإرهاب إذا لم تسلم المتهمين الإرهابيين. واقع الأمر إذن أن هؤلاء الأربعة أو الخمسة آلاف هم أناس سود ، ولا أعتقد أن هذا يعنى الكثير ، أو لربما يجب عليهم أن يشنوا حملة إرهابية واسعة فى الولايات المتحدة ، وبما أنهم لن يستطيعوا المهاجمة بالقنابل فعليهم ربما استخدام الإرهاب البيولوچى حتى تغير الولايات المتحدة قيادتها ، والتى هى فى واقع الأمر مسئولة عن الجرائم الرهيبة التى ارتكبت بحق الناس فى هايتى خلال القرن العشرين. أو بالتأكيد عند الالتزام بالبديهيات الأخلاقية - فإن على نيكاراجوا أن تفعل بالمثل ، وللمصادفة أن تتصيد أولئك القادة الذين أعلنوا الحزب على الإرهاب وهم عادة ذات الأشخاص . وتذكر أن الهجمات الإرهابية ضد نيكاراجوا كانت أكثر حدة وقسوة من هجمات الحادى عشر من سبتمبر ، حيث قتل فى الأولى عشرات الآلاف من الأشخاص ودمرت البلد بشكل مروع .

ويتصادف أن هذا مثال غير مثير للجدل ؛ لذا لسنا بحاجة للجدال بشأنه ، وهو

غير مثير للجدل بسبب الحكم الذى أصدرته محكمة العدل الدولية والتى أدانت فيها الولايات المتحدة بممارسة الإرهاب الدولى، وهو حكم أيده مجلس الأمن بإستصدار قرار يدعو فيه كل الدول لمراعاة القانون الدولى، ولم يشر إلى دولة بالاسم ولكن الجميع كان يعرف من يقصد بالقرار، وقد عارضت القرار الولايات المتحدة وامتنعت بريطانيا عن التصويت . أو حتى الحكم الصادر عن الجمعية العمومية فى قرارات متتابعة؛ لتؤكد على الشىء ذاته، وعارضته كذلك الولايات المتحدة وواحدة أو اثنتان من الدول التابعة. وقد طالبت محكمة العدل الولايات المتحدة بأن تمتنع فورا عن جرائم الإرهاب الدولى، وأن تدفع تعويضات كبيرة واستجابت الولايات المتحدة بقرار بإجماع الحزبين الديموقراطى والجمهورى لتصعيد الهجوم فورا، وقد وصفت ردة فعل وسائل الإعلام. وقد تواصل ذلك حتى تم القضاء على الخطر السرطانى . وبالتالى فى نوفمبر ٢٠٠١ أجريت الانتخابات فى نيكاراجوا فى منتصف الحرب على الإرهاب، وتدخلت الولايات المتحدة بشكل جذرى فى الانتخابات. فقد حذرت الولايات المتحدة حكومة نيكاراجوا بأنها لن تقبل أن تأتى الانتخابات بالنتائج الخاطئة! حتى إنها أعطت الأسباب لذلك . **فقد أوضحت وزارة الخارجية الأمريكية لنيكاراجوا بأنه لا يمكن غض الطرف عن دور نيكاراجوا فى الإرهاب العالمى فى الثمانينيات حينما قاومت الحملة الإرهابية التى أدت إلى تنديد أعلى سلطة دولية بالولايات المتحدة لممارسة الإرهاب. كل هذا الأمر يمر بدون أى تعليق فى إطار ثقافة فكرية تركز على الإرهاب والنفاق، ولكنى أعتقد أنه ربما حصل على عناوين فى صحافة المريخ.** وربما تريد أن ترى كيف عولجت هنا، وربما أيضا تحاول أن تجرب نظريتك المفضلة عن "الحرب العادلة" فى هذه الحالة غير المثيرة للجدل.

تدجين الأغلبية

كان لنيكاراجوا بطبيعة الحال دفاع ضد حملة الإرهاب التى تقودها الولايات المتحدة بحجة الحرب على الإرهاب، فنيكاراجوا لديها جيش! وفى بلاد أخرى من أمريكا الوسطى فإن قوات الإرهاب كان يتم تدريبها وتسليحها بواسطة الولايات المتحدة وتابعيها، وبالتالى لم يكن أمرا مفاجئا أن الجرائم الإرهابية كانت أكثر سوءا.

وهذه هى حالة أمريكا الوسطى والتى قال الحمائم بأنهم يريدون نيكاراجوا أن تعود إليها. ولكن فى هذه الحالة لم يكن الضحايا هى الدولة، وبالتالى لم يكن بإمكانها الالتجاء إلى محكمة العدل أو لمجلس الأمن لاستصدار أحكام ترفض بعد ذلك وترمى فى منفضة التاريخ، الأمر الذى ربما لا يحدث قط على المريخ.

لقد استمرت آثار هذا الإرهاب طويلا، وفى الولايات المتحدة هناك قلق عميق حول التأثيرات الكبيرة لهجمات الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية، فعلى سبيل المثال نشر مقال بجريدة النيويورك تايمز على الصفحة الأولى فى عدد ٢٢ يناير ٢٠٠٢ حول الناس المستفيدين من المآسى التى يعانى منها الأمريكيون. وبطبيعة الحال فالأمر صحيح بالنسبة لأولئك الضحايا لجرائم إرهابية أكثر شدة.

ولكن كما ذكرنا فإن هذه الجرائم تنشر فقط على المريخ. فربما ـ إذن ـ تحاول أن تعثر على التقرير عن مؤتمر عقده يسوعيو السلڤادور منذ عامين ـ وتجربة اليسوعيين تحت الإرهاب الدولى الأمريكى هى تجربة مريعة ـ ولقد أشار التقرير الذى صدر عن المؤتمر إلى تأثير ما أسماه بثقافة الإرهاب والتى تؤدى إلى تدجين طموحات الأغلبية، والذين بدورهم أدركوا أنهم لابد وأن يخضعوا لتعاليم الدولة الإرهابية الحاكمة وعملائها المحليين، وإلا سيتم إعادتهم إلى حالة أمريكا الوسطى كما أوصى الحمائم حينما كانت الحملة الدولية للإرهاب والتى تؤيدها الدولة قد وصلت لقمتها فى الثمانينيات. هذا طبعا لم ينشر، ربما ينشر فى المريخ.

شركاء متحمسون

فى الواقع قد يلحظ الكائن المريخى أموراً متشابهة كثيرة بين المرحلة الأولى والثانية للحرب على الإرهاب. ففى العام ٢٠٠١ تقريبا كل الدول التى يمكن اعتبارها إرهابية، انضمت إلى التحالف الدولى ضد الإرهاب بحماسة! والأسباب ليست بخافية على أحد. فنحن نعلم سبب حماسة الروس، فهم يريدون موافقة الولايات المتحدة لمباركة أنشطتهم الإرهابية الشرسة فى الشيشان على سبيل المثال، وتركيا كانت كذلك متحمسة، لقد كانت أول دولة تعرض تقديم قوات، وأوضح رئيس الوزراء التركى سبب ذلك. لقد كان ذلك عرفانا

بالجميل للولايات المتحدة التى كانت الدولة الوحيدة التى وافقت على تسليح تركيا، حيث زودتها بحوالى ثمانين بالمائة من إمدادات السلاح خلال سنوات حكم كلينتون لمساعدتهم لارتكاب واحدة من أسوأ الجرائم الإرهابية، وهى عمليات التطهير العرقى خلال التسعينيات،وهم شاكرون لذلك؛ ولذا عرضوا تقديم قواتهم من أجل الحرب الجديدة ضد الإرهاب، وللمصادفة فإن أيًا من هذه الجرائم لا تعد إرهابًا. **عليك أن تتذكر أنه وفق الرؤية التقليدية: طالما نحن الذين نقوم به فهو لا يعد إرهابًا . . . وهكذا بقية القائمة.**

وقد كان الأمر كذلك خلال المرحلة الأولى من الحرب على الإرهاب، فبيان الأدميرال بويس الذى نقلت منه عبارات، كان تفسيرا قريبا لخطاب ألقاه السياسى الإسرائيلى أبا إيبان فى عام ١٩٨١، وقد ألقى بيانه هذا بعد إعلان الحرب الأولى ضد الإرهاب بقليل، وكان أبا إيبان يبرر الجرائم الإسرائيلية فى لبنان، والتى اعترف بأنها كانت سيئة للغاية ولكنها مبررة! لأنه كما قال **" هناك أمل منطقى بأن السكان الذين تأثروا بهذه الجرائم سوف يمارسون ضغوطات لوقف الأعمال العدائية ضد إسرائيل " لاحظ أن هذا أيضا مثال من الكتاب يوضح الإرهاب الدولى فى معناه الرسمى، والأعمال العدائية التى كان يتحدث عنها كانت تتم على الحدود الإسرائيلية ـ اللبنانية، وكانت ترتكبها إسرائيل بالأساس وبدون أى حجة، ولكن تساندها الولايات المتحدة، فهى إذن ليست بالإرهاب، وهى ليست كذلك جزءا من تاريخ الإرهاب** . فى ذلك الوقت وبمساندة أمريكية حازمة، كانت إسرائيل تشن هجماتها فى لبنان بالهجوم بالقنابل وغيرها من الجرائم الوحشية لمحاولة تلفيق أى حجة لغزو مخطط له مسبقا، ولكنهم قاموا بالغزو على أية حال، وقتلوا ١٨ ألف شخص، واحتلوا جنوب لبنان لقرابة عشرين عاما مرتكبين أثناءها العديد من الجرائم الوحشية، ولكنها كلها خارج التسجيل؛ لأن الولايات المتحدة كانت تدعم إسرائيل بشكل قطعى .

مكافأة الجرائم الوحشية

هذا الأمر وصل ذروته فى عام ١٩٨٥، وهو العام الذى شهد قمة الجرائم الوحشية التى ارتكبتها إسرائيل وأمريكا متواطئة معها فى جنوب لبنان، وهى ما

أطلق عليها عمليات القبضة الحديدية، وكانت عبارة عن مذابح واسعة النطاق وعمليات إبعاد من القرى التى أطلق عليها القائد الأعلى "قرى الإرهابيين"، وهذه العمليات كانت تتم أثناء إدارة شمعون بيريز، وهو أحد المرشحين لجائزة أسوأ جريمة إرهابية فى عام ١٩٨٥ حينما كان الإرهاب هو القصة الخبرية رقم واحد لهذا العام، ولكن هناك منافسون آخرون! أحدهم كان عملية تفجير سيارة مفخخة فى بيروت فى بداية نفس العام، وكانت السيارة أمام أحد المساجد، وتم ضبط توقيت الانفجار بحيث يحدث أثناء خروج المصلين من المسجد لتحقيق أعلى رقم من الضحايا، وقد أدت الحادثة لمقتل ثمانين شخصا وإصابة مايزيد على مائتين وخمسين حسب الواشنطن پوست، حيث قدمت تقريرا مريعا عن الحادث، ومعظم الضحايا من النساء والبنات، وقد كانت على مايبدو قنبلة ضخمة وقوية؛ مما أدى لمقتل الأطفال الرضع وهم نائمون. . . . وغيرها من الجرائم الوحشية الأخرى، ولكن هذا الأمر لا يعتد به؛ لأنه من تدبير المخابرات الأمريكية والبريطانية، وبالتالى هو ليس إرهابًا، وهو إذن يستحق أن يكافأ.

والآن المنافس الآخر فى عام ١٩٨٥ هو الهجوم الإسرائيلى بالقنابل فى تونس والذى أدى لمقتل خمسة وسبعين شخصا، وكانت هناك تقارير مفزعة بعضها فى الصحافة الإسرائيلية ذاتها لصحفيين جيدين. ولقد شاركت الولايات المتحدة فى ارتكاب هذه المذابح لفشلها فى إخبار حلفائها التونسيين بأن المهاجمين كانوا فى طريقهم، ولقد استدعى چورچ شولتز وزير الخارجية الأمريكية رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق شامير؛ ليعلمه بأن الولايات المتحدة تبدى تعاطفا مع هذا العمل على حد تعبيره، ولكن شولتز تراجع عن موقفه الصريح لتأييد هذا الإرهاب الدولى حينما ندد به مجلس الأمن بالإجماع على أنه عدوان مسلح، وقد امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت. ولنواصل إعطاء واشنطن وأعوانها بعض مزايا الشك كما هو الحال فى نيكاراجوا، ولنفترض أن الجريمة كانت فقط إرهابًا دوليًا وليست الجرائم الأكثر خطورة وهى العدوان كما قرر مجلس الأمن، فإذا كان عدوانًا، فاحترام البديهيات الأخلاقية يحتم علينا أن نذهب إلى محاكمات نورمبرج. هذه هى الحالات الثلاث التى وصلت لمثل هذا المستوى فى ذروة عام ١٩٨٥. وبعد مرور أسبوعين من تفجير تونس، ذهب بيريز إلى واشنطن، حيث

انضم لرونالد ريجان فى التنديد بـ «كارثة الإرهاب الشرير فى الشرق الأوسط» ولم يثر هذا التصريح أى تعليق، وهو أمر صحيح لأنه وفق التقليد، فإن أيّا من هذا لا يعد إرهابًا، ومرة أخرى ذلك هو المبدأ المتفق عليه عالميًا. حسنا ربما يلحظ الكائن المريخى هذا الأمر حتى ولو لم يناقش هنا.

حينما كتبت عن هذا الموضوع منذ سنوات قليلة، نشرت جريدة الواشنطن بوست فى ٨ سبتمبر ١٩٨٨ استعراضًا للمقال، مع التعليق المفضل لدىّ؛ ذلك أنه كان مؤلف من كلمتين كتبهما مراسل الجريدة فى الشرق الأوسط وأوجز قائلاً بأنها "مشوشة للعقل بلا حياة" أعجبنى ذلك التعبير، ولكنى أعتقد أنه لم يكن محقًا فى توصيف" بلاحياة" فإذا قرأت المقال ستجده هادئًا ولكن كلمة "مشوش للعقل" صحيحة، إذا ماكان يجب أن تكون مشوش العقل لتقبل بالبديهيات الأخلاقية وتصف الحقائق التى لا يجب أن تصفها، وهذا قد يكون صحيحا.

أعذار مزرية

ولنعد مرة أخرى للكائن المريخى، فلربما يكون متحيرًا حول التساؤل لماذا كان عام ١٩٨٥ هو عام الذروة لعودة الهمجية لعالمنا بواسطة أعداء الحضارة الفاسدين وذلك بالإشارة إلى الشرق الأوسط، وسوف يكون أيضا متحيرا؛ لأن أسوأ قضايا الإرهاب العالمى فى المنطقة قد دفن فى حفرة بالذاكرة، مثله فى ذلك مثل الإرهاب الدولى بأمريكا الوسطى، وغيرها من الحالات الحالية أيضا. ورغم ذلك فإن هناك حالات من عام ١٩٨٥ مازال الناس يذكرونها جيدا؛ لأنها حقا إرهاب، والجائزة الرسمية للإرهاب لهذا العام تذهب لمختطفى سفينة أكيلى لورو ومقتل الأمريكى المعوق ليون كلينجوفر. الكل يعرف هذه الحادثة، وهى كانت جريمة وحشية والآن مرتكبو الحادثة يصفونها بأنها كانت انتقاما لتفجير تونس الذى حدث قبلها بأسبوع، والذى كان أسوأ مثل للإرهاب العالمى، ولكننا رفضنا هذا العذر الذى قدموه، بالاحتقار الذى يستحقه.

وكل أولئك الذين لا يعتبرون أنفسهم جبناء ومنافقين سيتبنون ذات الموقف المبدئى تجاه كل أنشطة العنف الانتقامية، مثلما هو الحال فى الجرائم الانتقامية التى

تحدث فى الأراضى التى تحتلها إسرائيل حاليا وبمساندة كاملة من الولايات المتحدة كالعادة دائما، وهذا لا ينظر إليه على أنه إرهاب. مما لاشك فيه أن الكائن الفضائى كان سيسجل ذلك فى الصفحة الأولى؛ ليقول بأن الولايات المتحدة مرة أخرى تستخدم حجة الحرب على الإرهاب لحماية ولربما أيضا تصعيد العمليات الإرهابية التى تقوم بها إحدى الدول التابعة لها. وآخر مراحل هذا الأمر بدأت فى ١ أكتوبر ٢٠٠٠، فمنذ ذلك التاريخ وفى الأيام الأولى بعد بدء الانتفاضة الحالية بدأت الطائرات المروحية الإسرائيلية فى مهاجمة الفلسطينيين العزل بالصواريخ مما أدى لمقتل وإصابة العشرات منهم. ولم تكن هناك أى حجج أو أعذار بالدفاع عن النفس (تعليق جانبى: حينما تقرأ تعبير المروحية الإسرائيلية فهى تعنى الطائرات الأمريكية يقودها طيارون إسرائيليون، ويتم تزويد تلك الطائرات مع معرفة مسبقة بالكيفية التى ستستخدم فيها الطائرات) وقد رد كلينتون على الفور على الجرائم الوحشية، وفى ٣ أكتوبر ٢٠٠٠، أى بعد يومين فقط، قرر إرسال أكبر شحنة طائرات مروحية عسكرية لإسرائيل فى خلال العشر سنوات الماضية بالإضافة لذلك قطع غيار لطائرات الأپاتشى أرسلت فى منتصف سبتمبر وتعاونت الصحافة من خلال رفضها الكتابة عن أىّ من هذه الأمور. لم تفشل - لاحظ - وإنما رفضت، لقد كانوا على علم بكل هذه الأمور. بالتأكيد كانت الصحافة المريخية لتكتب فى عناوينها الصحفية عن تدخل واشنطن لتصعيد دائرة الإرهاب، وفى ١٤ ديسمبر استعملت الولايات المتحدة حق النقض (الڤيتو) ضد قرار لمجلس الأمن يدعو لتنفيذ مايعرف بخطة ميتشل وإرسال مراقبين دوليين لمراقبة خفض حدة التوتر، وذهب القرار للجمعية العمومية حيث عارضته الولايات المتحدة وإسرائيل، وبالتالى تم طمسه وبإمكانك أن تتحرى عن التغطية الصحفية! . وقبل ذلك بأسبوع، عقد مؤتمر فى چينيڤ للأطراف العليا الموقعة على ميثاق چينيڤ الرابع، وهم مجبرون بحكم توقيعهم على تطبيقه. والميثاق كما تعلمون قد أسس له بعد الحرب العالمية الثانية لتجريم الأعمال الوحشية التى ارتكبها النازى، **والميثاق يحظر تقريبا كل شىء تقوم به إسرائيل والولايات المتحدة فى الأراضى المحتلة، بما فى ذلك المستوطنات، والتى أنشئت وتوسعت بتمويل من الولايات المتحدة، ومساندة كاملة تحت حكم كل من كلينتون وباراك خلال مفاوضات كامب ديڤيد .**

إسرائيل وحدها هى التى رفضت هذا التفسير . وحينما وصلت المناقشات لمجلس الأمن فى أكتوبر ٢٠٠٠ ، امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت ، ربما رغبة منها فى ألا تأخذ موقفا صريحا تجاه خرق واضح للمبادئ الأساسية للقانون الدولى ، ولاسيما فى إطار الظروف التى أدت لسنها بالأساس ، وقد صوت مجلس الأمن بنسبة ١٤ إلى صفر لمطالبة إسرائيل باحترام الميثاق ، والذى كانت أفعالها فى خرق واضح له . وقبل كلينتون صوتت الولايات المتحدة مع أعضاء آخرين ضد الانتهاكات الفاضحة للميثاق ، وهو أمر يبدو متسقا مع ممارسات كلينتون بفسخ القانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة فى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى .

وتخبرنا وسائل الإعلام بأن العرب يؤمنون بأن الميثاق ينطبق على الأراضى [الفلسطينية] وهو أمر ليس زائفا غير أن هناك نوعًا من الحذف ، فالعرب وكل الناس الآخرين يعتقدون بذات الأمر . وفى ٥ ديسمبر ٢٠٠١ عقد اجتماع ضم كل أعضاء الاتحاد الأوروبى وأكدوا ضرورة تطبيق الميثاق على الأراضى المحتلة وعلى عدم شرعية المستوطنات ، وطالبوا إسرائيل أى الولايات المتحدة وإسرائيل ، باحترام القانون الدولى ، وماحدث هو أن الولايات المتحدة قاطعت الاجتماع ، وبالتالى أفشلته ، وبإمكانك التحرى عن التغطية الإعلامية مرة أخرى!

هذه الأفعال ساهمت مرة أخرى فى تصعيد الإرهاب فى المنطقة ولاسيما عناصره الأكثر حدة ، كما ساهمت وسائل الإعلام كذلك بالطرق المعروفة .

ردود الأفعال على الإرهاب

ولنفترض فى النهاية أننا سننضم للمراقب المريخى ونخرج من الأمور التقليدية بشكل جذرى ونقبل بالبديهيات الأخلاقية ، فإذا ما وصلنا إلى هذا المستوى فنحن حينئذ ، وحينئذ فقط نطرح التساؤل حول الكيفية التى يمكن من خلالها الرد على الجرائم الإرهابية؟

الإجابة هى أن تتبع الدول الملتزمة بالقانون سابقة نيكاراجوا ، على سبيل المثال . بالطبع فشلت تلك السابقة ؛ لأنهم وقفوا ضد حقيقة أن العالم تحكمه القوة وليس القانون ، ولكنه لن يفشل بالنسبة للولايات المتحدة . وأنا مازلت بحاجة لرؤية

عبارة واحدة تشير إلى هذا المثال فى التغطية الصحفية الهائلة فى الشهرين الماضيين. إجابة أخرى قدمها بوش وبويس ولكننا نرفضها على الفور؛ لأنه لا أحد يؤمن بأن ناس هايتى أو نيكاراجوا أو كوبا أو غيرهم فى قائمة طويلة، لديهم الحق فى شن هجمات إرهابية ضد الولايات المتحدة وتابعيها أو غيرها من الدول الغنية والقوية.

هناك إجابة أكثر عقلانية قدمتها العديد من المصادر، بما فى ذلك الڤاتيكان، وقد طرحها المؤرخ العسكرى المشهور مايكل هوارد فى أكتوبر الماضى، وقد نشرت فى العدد الحالى من دورية شئون خارجية (يناير-فبراير ٢٠٠١) وهى دورية المؤسسة الحاكمة. وهوارد يتمتع بكل المؤهلات الصحيحة، ومكانة مرموقة، فهو شديد الإعجاب بالإمبراطورية البريطانية، وأكثر إعجابا بخليفتها فى حكم العالم وبالتالى لا يمكن اتهامه بتهمة النسبية الأخلاقية أو غيرها من الجرائم الأخرى. فبالإشارة إلى ١١ سبتمبر، قد أوصى بعمليات بوليسية ضد المؤامرات الإجرامية، والتى يجب أن يتم تعقب مرتكبيها و إحضارهم أمام محكمة دولية؛ ليتلقوا محاكمة عادلة، وإذا كانوا مذنبين يتم الحكم عليهم بالعقوبات التى يستحقونها. لم يتم التفكير بهذا الأمر، ولكنه يبدو أمرًا عادلاً، وهو يطبق على الجرائم الإرهابية الأكثر وحشية. وعلى سبيل المثال فالهجوم الأمريكى الإرهابى الدولى ضد نيكاراجوا، أو حتى الأمثلة الأكثر سوءًا والتى تتواصل حتى اليوم، هذا الأمر لم يتم التفكير به بالطبع ولكن لأسباب مضادة. إذن فالصراحة تتركنا فى أزمة، والإجابة السهلة هى النفاق التقليدى، أما الخيار الآخر فهو الذى يتبناه صديقنا الكائن المريخى والذى التزم بالمبادئ التى أقررنا بها، وهو خيار من الصعب بمكان أن نضعه فى الاعتبار، ولكنه أساسى إذا كنا نرغب فى تجنيب العالم المزيد من الكوارث الأشد سوءا.

* * *

إقـرأ لناعوم تشومسكى

* ماذا يريد العم سام؟

* ٩/١١.

* السيطرة على الإعلام.

ويصدر قريبًا:

* قراصنة وأباطرة .

واقرأ من مكتبة الشروق

* **الإمبراطورية الأمريكية ٣ أجزاء**... نخبة من الكتّاب .

* **الدين والسياسة فى الولايات المتحدة (جزءان)** .

تأليف : مايكل كوربت ـ چوليا ميتشل كوربت .
ترجمة : د. عصام فايز ـ د. ناهد وصفى (الجزء الأول) .
د. زين نجاتى ـ م : نشأت جعفر (الجزء الثانى) .

* **المسيح اليهودى ونهاية العالم** ... رضا هلال .

* **الأمريكى التائه فى الشرق الأوسط**... عاطف الغمرى .

* **أسطورة الشعب المختار فى الثقافة السياسية البريطانية الأمريكية** تحت الترجمة .

* **التوراة والسيف**... تحت الترجمة .

فهرس الكتاب

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٠٩٣١ /٢٠٠٢
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0901 -7

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٢
الرقم البريدي : ١١٢٣١



هذا الكتاب

• يقول قادتنا إنهم مسيحيون أتقياء يقدسون الإنجيل. يعنى هذا أنهم يحفظون عن ظهر قلب معنى كلمة منافق.

• يعرّف قانون الجيش الأمريكى الإرهاب بأنه: «الاستخدام المحسوب للعنف، أو التهديد باستخدام العنف لتحقيق أهداف سياسية أو دينية أو أيديولوجية من خلال التخويف وادخال الذعر، والإجبار» وهذا لصيق بسياسة الحكومة الأمريكية والإسرائيلية وغيرهما من الحكومات التى تحارب الإرهاب اليوم!

• يجب أن نواصل إرسال المساعدات العسكرية للأنظمة المستبدة .. حتى لو كانت فاشية ما دامت تحمى مصالحنا؛ لأنها أهم من حقوق الإنسان.

• صدام حسين وحش على وشك أن يغزو العالم.

مع أن العراق فشل فى الإنتصار على إيران - التى فقدت معظم جيشها مع الثورة وقبل الحرب - بعد حرب دامت ثمانى سنوات، ساعد العراق فيها كلٌ من الاتحاد السوفيتى - الولايات المتحدة - أوروبا - البلاد العربية ... فكيف أصبح بإمكان العراق غزو العالم؟

• ميثاق جينيف يحظر - تقريبا - كل ما تقوم به إسرائيل والولايات المتحدة فى الأراضى المحتلة، بما فى ذلك المستوطنات والتى أنشئت وتوسعت بتمويل من الولايات المتحدة.

• هذا بعض ما تقرأ فى كتاب ناعوم تشومسكى - بتجرده وأسلوبه الساخر العميق - الأمريكى الجنسية، اليهودى الديانة.

عادل المعلم

مكتبة الشروق الدولية